ظاهرة الاغتراب

في

شعر القرشى

بقلم

الدكتورة

نوره السفياني

محتويات البحث

- مقدمه
- حول مصطلح الاغتراب "المدلول والتطور"
- المبحث الأول : " الاغتراب والبعد العاطفي "
- المبحث الثاني : " الاغتراب والقلق الوجودى "
- المبحث الثالث : " الاغتراب والهم القومي "
- المبحث الرابع : " غربته المكانية والزمانية "
- خاتمه
- فهرس الحواشي

مدخل : حول مصطلح الاغتراب (المدلول والتطور)

تزايد الاهتمام بمفهوم الاغتراب في الفلسفات المعاصرة وعلم النفس وعلم الاجتماع والدراسات الأدبية والأنثروبيلوجية. ويعود المصطلح الغربي إلى الأصل اللاتيني لكلمة اغتراب وهو alenatio ويعني تحويل شيء ما لملكية شخص آخر. كما ترجع إحدى الاستخدامات التقليدية لهذا المصطلح إلى الإنجليزية الوسيطة المستمدة من اللغة اللاتينية حيث تستخدم كلمة alienato للدلالة على حالة فقدان الوعي أو شلل وقصور القوى العقلية. ويمكن أن يفيد الفعل alienare معنى التسبب في فتور علاقة ودية بين طرفين أو جعل شخص ما مكروها. والواقع أن للاغتراب جذوره الدينية في الفكر المسيحي؛ فقد ارتبطت الكلمة بالآداب اللاهوتية وجاءت في الترجمات والشروح اللاتينية للإنجيل، وكانت تعني الانفصال عن الله بسب السقوط في الخطيئة والحرمان من النعمة الإلهية. و بدأ مصطلح الاغتراب يأخذ مكانته الفلسفية والفكرية في العصور الحديثة

وبالتحديد منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي على يد عدد من الفلاسفة ، ومن أهمهم جان جاك روسو وهيجل وماركس وكارين هورني وهيدجر وإريك فروم وسارتر . وقد ناقش روسو الاغتراب في ضوء نظرية العقد الاجتماعي التي يرى فيها أن المرء بوسعه أن يتنازل عن جزء من ملكية يحرزها، أويمنحها كلها للآخر طواعية لتكون تحت التوجيه الأسمى للإرادة العامة للجماعة دون أن يعرضه ذلك للمهانة؛ لأن هذا التنازل لا يفقده شيئا أساسيا بالنسبة لوضعه إنسانا، لكنه إذا قام بنقل سيادته على نفسه إلى الآخر فإنه يعرض وجوده حينئذ إلى الانحطاط والاغتراب بغض النظر عن التعويض الذي يقدم إليه نظير ذلك، إذ لايوجد شيء يعوض حرية المرء إذا فقدها. ووسع روسو نطاق مصطلح الاغتراب في مواضع أخرى ليجعله يشمل تقديم المرء شخصيته إلى الجماعة مثنيا على هذا الاغتراب الإيجابي الذي يوحد بين الفرد والبنية الاجتماعية. أما هيجل فقد تميز مصطلح الاغتراب عنده بطبيعة ازدواجية فهو يستخدمه أحيانا بمعنى الانفصال أو التنافر الذي ينشأ بين الفرد والمجتمع ويؤدي إلى اغتراب الذات الناشئ عن التنافر بين الوضع الفعلي للمرء وبين طبيعته الجوهرية. ويصل الفرد الغارق في تميزه

في هذه الحالة إلى اعتبار البنية الاجتماعية شيئا خارجا عنه ومعارضا له، ويصبح بالتالي مغتربا عن ذاته لأنه أغفل كليته الجوهرية، ذلك لأن البنية الاجتماعية ليست خارجة عنه، بل هي عقله المتموضع. ويتم قهر الاغتراب عند هيجل عن طريق التسليم أو التخارج وهو بمثابة الوجه الإيجابي لمصطلح الاغتراب في مؤلفاته.ويتحقق ذلك بواسطة التضحية بالخصوصية والإرادة حتى لو وصل الأمر إلى التنازل عن الشخصية شرط ألا يسفر هذا عن الخضوع للآخر أو الاعتماد عليه؛ فالتنازل لابد أن يكون واعيا يهدف إلى ضمان تحقيق غاية مرغوب فيها ألا وهي الوحدة مع البنية الاجتماعية. وإذا كان هذا يقربه من روسو فإنه يرتبط بما كان يؤمن به في كتاباته الأولى من أن الحب يتطلب التنازل عن الاستقلال بهدف إقرار التضامن بين البشر. وقد ربط ماركس بين اغتراب الناس عن بعضهم وبين الإنتاج؛ لأن إنتاج الإنسان هو حياته في شكل متموضع، وإذا اغترب المرء عن إنتاجه فقد اغترب عن ذاته. ويرى أن هذا مايحدث في النظام الرأسمالي حين تتحكم المصالح الخاصة بطبقة ما الأمر الذي يؤدي إلى أن يفقد الإنسان شخصيته ووجوده الكلي، ويتدنى إلى مستوى الآلة والعبد والحيوان، ويصبح كل فرد

مشغولا بمصالحه الخاصة منعزلا عن الآخرين. ومن هنا يتولد الاغتراب الذي يضرب بجذوره في التمحور حول الذات؛ إذ تعد الأنانية الشرط الضروري والكافي لحدوث الاغتراب. ويقدم ماركس الشيوعية على أنها الحل الحقيقي للتغلب على اغتراب الذات الإنسانية ولفض النزاع بين الإنسان و الإنسان. و على الرغم من وجود بعض أوجه الاختلاف بين الفلاسفة السابقين فإنهم يكادون يتفقون على أن من أهم أسباب الاغتراب التنافر الموجود بين الواقع الفعلي للإنسان و الطبيعة الجوهرية، وحل هذا الإشكال لا يتم إلا عن طريق تنازل الفرد عن جزء من ملكيته واستقلاله في محاولة منه للتوفيق بينه وبين البنية الاجتماعية. أما سارتر فقد قدم مفهوما مخالفا فهو لا يفترض وجود هذا التنافر بين الجزء والكل، بل يراه أمرا حتميا لا مفر منه وعلينا الإقرار به ومواجهته. ويركز سارتر بؤرة اهتمامه في مناقشة مصطلح الاغتراب على ما يسميه نظرة الآخر؛ فالذي يحدد وجودي قدراتي وليس خصائصي المفروضة، ولكن الآخر حين ينظر إلي لا يرى إلا الخصائص المفروضة وأبدو له موضوعا. وهكذا فإن هذه الذات التي يبصرها الآخر غريبة عني وهي تشكلني موضوعا غير قابل للعلاج.وليس بوسعي التخلص

منها مما يجعلني مغتربا عن نفسي على نحو حتمي لا مفر منه. وقد طور سارتر فيما بعد مفهومه عن الاغتراب رابطا إياه بالعمل والإنتاج متأثرا بماركس مع الإصرار على أن الاغتراب أمر حتمي ملازم للتموضع بالمعنى الذي يقصده سارتر وتميز به عن السابقين له. هذا ومن السهل ملاحظة كيف تميز مصطلح الاغتراب عند الغربيين عموما منذ نشأته بسمته الجدلية التي منحته معنى تكامليا وتنازعا بين السلبية والإيجابية، أو كما عبر عنها هيجل بالألمانية بين الانفصال entfremdung والتمازج entaeusserung. [1]

أما في الثقافة الإسلامية والفكر العربي فإننا بداية نجد معاجم اللغة تركز على الغربة المكانية؛ فالكلمة ترد فيها بمعنى البعد والنأي كما وردت فيها بمعنى الحدة والتمادي والغموض في الكلام والخروج عن المألوف [2]. ولم ترد الكلمة في القرآن الكريم، وقد ربط بعض فلاسفة ومفكري الغرب أثناء مناقشتهم قصة خروج آدم ــ عليه السلام ــ من الجنة كما وجدوها في التوراة والإنجيل، ربطوا بين خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض و بين تعرضه للشقاء والاغتراب نتيجة لهذه النقلة الكبيرة التي عرضته إلى حالة اغتراب دائم كما يقولون.وسار في هذه الوجهة بعض المفكرين العرب

مؤكدين على قبول توبة آدم ـ عليه السلام ـ ورحمة الله الواسعة.[٣]وعندما نتأمل الآيات القرآنية التي ناقشت هذه القصة لا نجد فيها مايوحي بالاغتراب من قريب أو بعيد؛ فخروج آدم وزوجه بسبب غواية الشيطان لم تعرضه للعنة الله ـ عز وجل ـ فقد تاب الله عليه وقبل توبته {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }[٤] ولم يكن خروجه من الجنة ـ إيذانا ببدء انفصاله عن خالقه وعذابه وشقائه، بل كان بداية لممارسة تشريف الله له باستخلافه في الأرض لإعمارها وبنائها وعبادته فيها. لكن الإنسان سيتعرض للشقاء والاغتراب لا محالة إذا ترك هدى ربه و خدع بحيل عدوه اللدود واتبع هوى النفس وشهواتها في ما يغضب الله {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }[٦] وتكفل الخالق لعباده بنجاتهم من الضياع والضلال والشقاء إذا احتكموا إلى شرعه وهداه {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى }[٧] أما من اختار طريق الكفر والجحود والغواية وابتعد عن خالقه بإتباعه الهوى والشيطان فهو يسير في طريق مسدود وشقاء لانهاية له {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً

يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[٨] وإذا انتقلنا إلى السنة الشريفة فسنجد استخداما مباشرا للكلمة في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: [بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء][٩] وقد صدمت التعاليم الإسلامية كفار قريش وأبوا في عناد وصلف أن يتنازلوا عما ألفوه من أفكار ومعتقدات ، وتسلطوا على المؤمنين بالدين الجديد بالإيذاء والبطش والقتل .ولم يبدل أتباع النبي ــ عليه السلام ــ حسبهم ولا نسبهم ،

ولكنهم صاروا غرباء عن مجتمعهم بسبب ما باتوا يعتقدونه ويؤمنون به، فهي إذن غربة اجتماعية ونفسية أقصتهم عن أهلهم وذويهم وهم يعيشون بين ظهرانيهم، وهي غربة ترفع من قدرهم لأنها تصطفي الفئة التي عرفت الحق فانتصرت له وصبرت عليه.و يمنح هذا التفسير مصطلح الاغتراب في الإسلام والفكر العربي خصوصية وتميزا سيلازمانه بعد ذلك في معظم الأطروحات الفكرية والإبداعية، وهو يعتمد في جذوره على ربط العربي قديما بين الشعور بالغربة والإقصاء وبين التميز كما يظهر في الشعر الجاهلي، بل حتى في قواميس اللغة.

هذا وقد لقي موضوع الاغتراب في الثقافة العربية اهتماما ملحوظا من المفكرين والفلاسفة العرب، وتمت مناقشته في الأغلب ضمن نطاق الغربة المكانية والزمانية .ومن أشهر المؤلفات التي كشفت عن ذلك الاهتمام: (رسائل الحنين إلى الوطن) للجاحظ وكتاب (أدب الغرباء) للأصبهاني و (الغربة والاغتراب) لابن القيم الجوزية. هذا بالإضافة إلى أننا نجد استخداما للكلمة واشتقاقاتها بشكل موسع في الشعر والنثر، كما اهتم بها المتصوفة اهتماما خاصا. و يميز تاريخ هذا المصطلح في الفكر العربي افتقاده في أغلب الأحيان ذلك الطابع الجدلي الذي تميز به في الثقافة والفكر الغربي؛ إذ قلما نجد اتجاها نقديا في التعامل معه، وغالبا ما يناقش في جو من الشجن والحزن. يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه (الإشارات الإلهية): " الغريب في الجملة من كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاؤه حزن، وعشاؤه شجن، وخوفه وطن " [١٠] وإذا أعيت أحدهم القدرة على القولبة ومسايرة من حوله، وشعر بالغربة وسط أهله وأحبابه فهو ليس غريبا ولا شاذا، بل خاصا ومتميزا لكنه لم يجد من يفهمه ويقدر مواهبه كما يرى الصوفيون. يقول ابن باجة في كتابه

(تدبير المتوحد): " فأما من وقع على رأي صادق لم يكن في تلك المدينة أو كان فيها نقيضه هو المعتقد، فإنهم يسمون " النوابت" وكلما كانت معتقداتهم أكثر وأعظم موقعا، كان هذا الاسم أوقع عليهم.وهذا الاسم يقال لهم خصوصا، وقد يقال بعموم على من هو يرى غير رأي أهل المدينة، كيف كان صادقا أو كاذبا، ونقل إليهم هذاالاسم من العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع،فلنخص نحن بهذا الاسم الذين يرون الآراء الصادقة. "[١١] ويصفهم قائلا: "هم ما لم يجتمع على رأيهم أمة أو مدينة. وهؤلاء هم الذين يعنونهم الصوفية بقولهم الغرباء،لأنهم وإن كانوا في أوطانهم وبين أترابهم وجيرانهم، غرباء في آرائهم فقد سافروا بأفكارهم إلى مراتب أخرى هي لهم كالأوطان ."[١٢]

وقد عزز الشعر العربي دلالة الأقوال السابقة في عصوره المختلفة منذ العصر الجاهلي وما بعده [١٣]، وصور الشعراء مشاعر الغربة تصطفق بين جوانحهم، واقترن ذلك في أحايين كثيرة بشعور بالتميز والتفرد. يقول أبو العلاء المعري :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء تشذ وتنأى عنهم القرناء[١٤]

وساعدت الطبيعة الغنائية للشعر العربي على استثمار تلك الأحاسيس وتعميقها على أفضل وجه. وإذا كان طرفة بن العبد من الذين أقصتهم مجتمعاتهم عن مظلتها حين جاء تعبيره عن فرديته متعارضا مع قوانينها وأعرافها، فإن عذابه لم يكن يكمن في ذلك الإقصاء، بقدر ما كان يتجسد في عجزه أن يرى نفسه خارج إحساسه المزلزل بالانتماء، أو أن ينتصر لفرديته ــ رغم اعتداده بها ــ وإرضاء شراهة (أنا) المتضخمة لديها دون أن يفقد (نحن) العظيمة:

ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد [١٥]

" لقد عبر طرفة عن تفرده وبروز ذاته في هذه اللمحات الفكرية التي بثها في عدد من موضوعات نصوصه وقرر من خلالها ملامح نمط ذاتي قد ينتمي في بعض خصوصياته إلى توجهات مارسها الجاهليون ولكنه يبقى ذا دلالات خاصة في مضامينه التفصيلية الأخرى. ومن أبرز معطيات التعبير عن الذات المتفردة في شعر طرفة جنوحه إلى تصوير وجوده الفردي بصيغة تؤدي مدلولات

التميز وتضخم (الأنا) المنفصـــمة تمامـــاً عـــن مقومـــات وجودهـــا الاجتماعي المفترض." [١٦] أما المتنبي فان فرديته لم تكن ســـببا فـــي اغترابه وحسب، بل كانت أحد أوجه عظمتـــه الشـــعرية ومحركـــات ديناميكيتها الخاصة، وكان انتماؤه إلى هذه الذات وإيمانـــه بتفردهـــا أقوى من انتماءاته الأخرى:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة ؟ وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهـــجة تقبل الضيما [١٧]

ويشهر المتنبي فرديته في وجه ما هو أقوى سلطة من المجتمع في وجه الزمن، ويقف في سبيل ذلك التفرد حتى ضد نفسه ولا انتماءات لديه، ولن يبقى أمام المرء حين يفر من زمنه و ذاته إلا الاغتراب وويلاته. وقد لاقى شعراء العربية قبل المتنبي وبعده من أسباب الاغتراب النفسية والاجتماعية والسياسية ما هو مذكور في أشعارهم و أقوالهم من أمثال ما نجده عند امرئ القيس، وأبي فراس، وابن الرومي، وأبي العلاء، وابن الفارض وغيرهم كثير. أما في العصر الحديث فإن الشاعر العربي ــ متكئا على إرث أجداده وما حفلت به الفترات الزمنية التي عاشها من انكسارات وهزائم و إحباطات قومية وإنسانيةــ اندفع في طرق شتى كان من بينها

الانكفاء على الذات، والوقوع في قبضة الغربة والاغتراب. كما أن طابع الحياة الحديثة والفلسفات العدمية التي سادتها أثرت في الفنون والآداب على نحو خاص وأبرزت حقيقة " أن الإنسان كائن وحيد وأنه رغم وجوده في جماعة فإنه دائما حالة خاصة من الوحدة: يمرض وحده، ويموت أيضا وحده، ويتمتع أو يتألم وحده...." [١٨] والشعور بالعزلة والوحدة ظاهرة قديمة رصدها وعبر عنها شعراء وكتاب الحضارات القديمة من أمثال الشاعر اللاتيني أوفيه صاحب كتاب (فن الهوى) و(مسخ الكائنات) [١٩] ومن المدارس الشعرية العربية الحديثة التي اكتوت أشعارها بالغربة والاغتراب المهجر والديوان وأبوللو. وقد رفعت الأخيرة لواء العاطفة والفن والجمال والتغني بدنيا الوجدان وما يجول فيها من مشاعر وأحاسيس، واهتمت بتسجيل تلك المكنونات بكل تفاصيلها وحدتها وتناقضها. وهكذا وفرت هذه المدارس والحركات الشعرية الفرصة الذهبية لأحاسيس الغربة والوحدة والعزلة أن تبرز نفسها أغراضا وموضوعات مستقلة على شكل تجربة متكاملة بعد أن كانت أبياتا متفرقة ينفس الشاعر القديم بها عن ظلم مجتمعه وعصره وإنسان ذلك العصر.

وقد تأثر الأديب والشاعر السعودي مثلـــه مثـــل غيـــره بكـــل المؤثرات السابقة وفي مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر حسن عبـــدالله القرشي (١٩٢٧ــ ٢٠٠٤م) شاعر الحب والفن والجمال. وإلى جانب سيرته الشعرية ومجموعة من المؤلفات في النقد والتاريخ والقصـــة والمسرح الشعري، ترك الشاعر لنا ما يزيد على خمسة عشر ديوانـــا سطر فيها أشواق روحه الظامئة المحلقة في عوالم مختلفة . ومـــن اليسير على قارئه أن يلحظ كيف اســـتأثرت دنيـــا العواطـــف بجـــل اهتمامه، وكيف وهبها جذوة فؤاده، وسفح علـــى أعتابهـــا عصـــارة روحـــه ومداد قريحته، راصدا حركاتها وسكناتها بعـــين لا يفوتهـــا شيء ، ولا تمل عملها المضني مما يرجـــــح أن المسألة بالنسبة له لم تكن مجرد تـــأثر بالحركات الشعرية المعاصرة له، بقدر ما كانـــت إرواء لنفسه المفطورة على حب الجمال المشدودة إلى حديث القلـــب ودفقة الشعور، هذا ولا يمكن بالطبع إهمال أثـــر وســـلطان الأجـــواء الثقافية والأدبية التي عاصرها الشاعر. والواقع أن من يتأمل إنتـــاج القرشي، على تنوعه وغزارته، تلفته البساطة المتناهية التـــي كـــان يركن إليها أثناء أداء عمله، فهو يحتفظ بتلقائيته وعفويته ما وسعه ذلك على الرغم من انبهار معاصريه بـــبعض المـــذاهب والحركـــات

الشعرية التي مالت إلى الغموض والتعقيد تحت مسميات وأهداف مختلفة. والحق أن القرشي انجذب إلى الرمزية واستسلم لإغرائها في بعض قصائده دون أن يفقد براءته الشعرية وتلقائيته المحببة، كما لم يجد غضاضة في الإفادة من التغيرات التي نالت شكل القصيدة العربية على أيدي المجددين فيما عرف بشعر التفعيلة، وليس ذلك بمستغرب منه ولا يضير كلاسيكيته العريقة التي جاءت أغلب أشعاره في وهجها. يقول القرشي: " بالرغم من ذلك كتبت فيما بعد الشعر الحر[٢٠] في نماذج مقبولة؛ ذلك إنني أستنكر التعصب للشكل في الشعر. ولم يكن اتصالي بحركة الشعر الحر غريبا علي أو متعارضا شكلا مع اتجاهاتي، فقد تخليت كما قلت عن القافية ذات الجرس والرنين، وفي كثير من قصائدي الأولى اتجاه إلى تنويع القافية في القصيدة الواحدة....واعتقادي أن الشعر الحر لون سيقدر له البقاء لأنه أقدر ــ في أغلب الأحيان ــ على الرمز من بعض الشعر العمودي، وهذا لا يعني أنه اللون المفضل عندي فكلا اللونين أثير على نفسي محبب إليها. "[٢١]

أما هويته الشعرية الحقيقية فهي لا تجد ذاتها وتتعرف عليها إلا في دنيا العاطفة ، ولم يكن من قبيل المبالغة أو التصنع أن تتراءى

له دنيا الشعر في أتون العواطف المتأججة وبوتقتها. يقول في مقدمة ديوانه (موكب الذكريات): " الشعر دمعات، وابتسامات، وأفكار تتألق، وجراح تسيل على الورق، وقلوب وأكباد تحترق، وطاقات ورد نشوان حسبها أن تفعم الكون بشذاها المسكر وتطلق فيه عبقها المثير! ....ليس الشعر خيالا مجنحا في لفظ مشرق ولكنه روح قائله انسكبت للقارئ، أحاسيس دافئة، ونبضات خافقة، وهمسات مرتعشة.. "[٢٢] وحري بمن يولي المشاعر والأحاسيس هذه الأهمية أن يصدم بطغيان الحسابات المادية ورح الأثرة والأنانية في عالم يسود مشهده الظلم والاستبداد و لا يعترف إلا بالقوة والجبروت، وحري بنفس مفتونة بالجمال والفن أن تتمزق إربا أمام كل مظاهر القبح والوحشية من حولها وتسقط في براثن الغربة والاغتراب. وقد سجل الشاعر لنا بكل صدق عذابات اغترابه في أحوالها المختلفة، وخص بعضها بقصائد مستقلة لينقل تجربة روحه المغتربة بكل تفاصيلها و أبعادها. وإذا كان القرشي شاعرا أبوللیا صميما ــ بالفطرة قبل أي شيء آخرــ فإن مشاعره تجاه المرأة تفوز بالحيز الأكبر من عالمه العاطفي وفكره ووجدانه. وإذا كان القرشي هو شاعر الحب والفن والجمال، فإن خصوصية هذه المفردات الثلاث

عنده تنبع من أنها كانت تعني: المرأة. و لا يقف الأمر عند المقدار الكمي للقصائد المعبرة عن هذا الموضوع، بل يتجلى في الكيفية التي أبرزت محورية الأمر بالنسبة لتجربته الشعرية والإنسانية، وكيف حافظت على أهميتها وحضورها على امتداد عمره الشعري المديد. لقد كانت المرأة نقطة الارتكاز في عالم القرشي وفضائه الشعري؛ ولهذا فإن المدخل الحقيقي لمناقشة تجربة الاغتراب لديه إنما ينبغي أن تتم من هذه البوابة دون سواها لارتباط هذه الظاهرة في شعره بتركيبته العاطفية والنفسية.

المبحث الأول : الاغتراب والبعد العاطفي :

حين ننظر إلى واقعية دلالة المرأة ورمزيتها في الشعر العربي من أقدمه إلى أحدثه نجدها في قلب الصورة وفي خلفيتها، ويبدو الأمر في معظمه كأنه لا مهرب منها إلا إليها. وإذا كان الشعراء اختلفوا في التعبير عن ذلك التورط والانغماس كل حسب المدرسة التي ينتمي إليها والمذهب الذي يدين به، فإن المرأة كانت بالنسبة إلي القرشي بداية القصة ونهايتها. وقد أولاها منزلة عالية وكانت انطلاقاته وأجواؤه رومانسية في جذورها تستمد شرعيتها القوية من عفة واعتداد العذريين وولههم المتسامي المضطرم بعواطفه المشتعلة المكبوتة، دون أن يمنعها ذلك من أن تتطلع إلى ما يقدمه لها عالم عمر بن أبي ربيعة الجريء الواثق من نفسه الثرثار المتباهي بصولاته وجولاته. وتظهر أشعار القرشي كيف اتخذ من المرأة في ظل علاقته بها ودلالتها عنده معادلا موضوعيا للحياة نفسها، وتتغلغل هذه التعادلية أو التبادلية بين المرأة والحياة في قصائده وتعبر عن نفسها بطرق مختلفة على نحو لا يمكن أن تخطئه عين. وقد عرف

الشاعر الوجداني عموما بإيمانه العميق بهذه الجدلية بين الحب والحياة " ومن هنا وجدنا الشاعر يقيم علاقة جدلية بين الحب والحياة، والحب والموت. وهي مسالة خضع لتأثيراتها كثير من الشعراء الوجدانيين لان التعلق بروحانية هذا الحب لابد من أن يكون ممتزجا بدم الشاعر، إذ إنه يوجه كل زوايا وجدانه صوب حالته العاطفية في توهجها وهدوئها. على هذا الأساس يمثل حبه الأمل المرتجى في حالتي الانبساط والانقباض." [٢٣] ومن الإشارات المباشرة في هذا الصدد قصيدة بعنوان (أنت الحياة) في ديوانه (النغم الأزرق):

إيه يا قاتلي وسارق حظي

والذي منه تَعذُبُ الترهات!

رغم يأسي ورغم حرمان نفسي

أنا أهواك أنت أنت الحياة[٢٤]

ويقول في قصيدة بعنوان (مناجاة) :

بعينيكِ أدركتُ لحنَ الخلودْ ومن عطركِ الحلو هذا النشيدْ

تَبَاركتَ ربّاه ، هذا الجمالُ تَسامى بروحي لمعنىً شرود ٢٥

و يكمن سر الكون وسر الخلود فيها، أليست المرأة هي رمز الخصب والتجدد والعطاء كما تمثلت في الوجدان الإنساني منذ عهده البدائي وحضاراته القديمة؟ وقد دار الشاعر حول هذا المعنى في

قصائد عديدة على نحو يمثل ظاهرة بارزة في شعره، ويكشف عن مدى أصالة هذا الشعور لديه:

أفاجأ ، ألقاكِ لا أحتفي بكِ فيمَ وقد كنتِ سرّ الوجودْ ؟
وقد كنتِ في القلب عطرَالأماني وقد كنت للرُّوح سحر الخلود ؟ [٢٦]

ولا يهتز هذا المعنى في داخله حتى في حالة غضبه منها ، أو عندما تسوء علاقته بها فهي تظل تمثل عنده القيمة نفسها :

إني لأحتقر الحيا ة تذيبني عبثًا ولهوا [٢٧]

ويناجيها في مسحة صوفية :

من أنت قولي يا حياتي إنني
لم أدرِ كيف أعودُ منكِ إليكِ؟! [٢٨]

وعلى عادة الرومانسيين نجد الطبيعة حاضرة بكل مظاهرها في مختلف الأغراض التي كتب فيها القرشي، و خصوصا أثناء حديثه عن المرأة. . وإذا كانت المرأة هي الحياة والحياة هي المرأة، فإن من الطبعي أن

نرى ذلك الاندماج بين المرأة والطبيعة؛ فهي النور والقبس والندى والربيع والسلام والدفء والصبح والبدر والضياء والجنة والملاك. وقد دأب الشاعر على الدوران في فلك هذه الألفاظ، وبدا كأنه يضرب بها حصارا حول روحه الو لهى المأسورة. والواقع أن

التداخل بين المرأة والطبيعة ملمح رئيس عند شعراء الرومانسية عموما، فهي واحة الأمان والملجأ والملاذ والكف الحانية وصاحبة اللمسة السحرية القادرة على تبديد الأسى ومحو الشقاء. يقول الدكتور عبد القادر القط " لذلك تبدو عاطفة الحب عند هؤلاء الوجدانيين وكأنها تجربة روحية ترتبط بمعاني الطهارة والعفة والصمود أمام الشهوات، ويسمو الشاعر فيها بخياله إلى عالم نوراني من الأحلام.. والأوهام ، متخذا من حبه مجرد إلهام لموهبته و حافزا لوجدانه ليرقى إلى ما يستطيع من رحاب الروح والفن. ومن هنا كان وجود المرأة ــ عند من ينحون هذا المنحى من الشعراء ــ وجودا مطلقا غائما لا يحده في الأغلب اسم أو زمان أو مكان، يتحدث الشاعر عنه في كثير من الأحيان حديثه إلى غائب مجهول، أو يخاطبه أحيانا كما يخاطب مثالا ساميا، خالصا من أدران الحياة وأطماعها. " [٢٩]

و في ظل هذه المحورية لدلالة المرأة في شعر القرشي وبخلفيتها النفسية والعاطفية والفنية التي تم بسطها فيما سبق يمكن لنا أن نفهم كيف عبرت روحه المغتربة عن أشجانها وشقائها

وإحساسها بالاغتراب في حضـــور المحبوبـــة وغيابهـــا وعطائهـــا وإمساكها. يقول في قصيدة بعنوان (في قيود العذاب) :

ترقرق في وجنتيك الضـــــياءُ وأزهي بجبهـــتكِ الناعـــــمـــه
و في صدرك انبثقَ الناهـــــــدا ن يـــطلان من فجوةٍ فـــاغـــمه
هـــما طائران استفزَّا الـــــغرامَ تـــفـــديهـــما مهجتي الهائـــمه
فقلتُ هنا مهدُ روحي الغريـــــبِ هـــنا عشٌّ أحـــــــلامي الحائمه
هنا عَـــوْدُ ماضيّ بعـــــد المغيبِ وصحـــوةُ أشـــواقي الـــنائـــمه
ونـــبضةُ قـــلبي الذي أثقـــلتْه طيوفُ الأســـــى بالرّؤىالقـــاتمه
هنا جذوةُ الحبّ ويْحَ الرمـــــــادِ أيغمرُ أجـــــوائيَ الناغـــمـــه؟
أيمضي بنا في عُبابِ الحـــــياةِ فنـــــشرقُ بالظلمة الجاثمه؟ [٣٠]

فهولا يأوي إليها بأشواقه وتحنانه فحسب ، بل وبغربته أيضا ناشدا لديها العزاء والسلوان، " فالمرأة عند الرومانسيين هي المـــلاذ الذي يحتمون بحبه من اغترابهم في الواقع الإنســـاني، لأنهـــا هـــي الكيان الإنساني الذي تكتمل به حياة الرجل." [٣١] يقـــول فـــي قصـــيدة بعنوان (أصداء) :

أنا في الكون غير أنِي من الكو
ن بعيدٌ ،أعـــــظمْ بذلك داءَ
وغريب أجل غريب ، ومالي
نشوةٌ من سواك تُسْري الضياءَ [٣٢]

وفي قصيدة أخرى بعنوان (نجــوى) يحتمــي بجمالهــا وإشــراقها وسحرها لتنقذه من غربته رغم ضجيج الحياة من حوله :

نضِّري بالجمال عمري، وبالإشــ
ــراق فجري ، وبالحنين كياني
واسكبي في مسامع النفس نجوى
عذبةَ السحر ثــرةً بالمعاني !
أنا في ضجة الحياة غريبٌ
خافتُ الجرسِ في صحارى الزمان [٣٣]

وهكذا يربط الشاعر بين عذابه واغترابه وبين افتقاده وجــود المرأة في حياته، فهي الربيع الذي يرحل بغيابهــا ويتــرك المشــهد بأكمله في قبضة الخريف القاسية.والربيع ذو دلالــة عظيمــة عنــد القرشي وهو من المكونات الأساسية لعالمه الشعري ــ مثــل أغلــب شعراء أبوللوــ وأحد أوجه الحبيبة بكل نضارته وعنفوانه. إنه وجه الحياة العاشق المتدفق حيوية وبهجة الذي يؤمن الشاعر بوجــوده، أما الوجه الآخر الخريف أو افتقاد الحب والمرأة فــذلك أحــد أهــم مسببات الاغتراب لديه، لأنه يعني أن الحياة أصبحت أقل جدارة مــن أن تعاش ولا بديل حينئذ إلا الضياع والأسى والقيد والاغتــراب فــي صحراء قاحلة:

وحلَّ النوى فاستفاق الغرامُ ... على صرخةٍ كالأسى قاصمه

فولىّ الربيعُ وجاءَ الخريفُ ... بأصدائِهِ المرّةِ الجاهمه

وقفنا نودِّعُ حلمًا جميلا ... ونرنو بعين الأسى الغائمه

أحقّا توارى شذى الذكرياتِ ... و ولتْ مواكبها الباسمه ؟

وعدنا كقافلةٍ في الفلاةِ ... أطافتْ بها طغمةٌ غاشمة

تناءت مشردة بعدما ... أطاحتْ بها النكبةُ العارمة

أجل نحن عدنا شريدَيّ ضياع ... أسيريْن في قبضةٍ جارمه

نجرّ سلاسلَ هذي القيودِ ... تقالِيدَ محكمة صارمه

فلا أنتِ لي و برغم الهوى ... تعيشين حسرى المنى راغمه

وما أنا بعدَكِ إلا شراعٌ ... تهاوى مع اللجة الداهمه ![34]

وكثيرة هي القصائد التي تدور حول هذا المعنى ومنها (الأمس الضائع) و (ضباب) و (جني الأحلام) و (غير كاسي) و(ضياع) و(في عينيك) و(زخارف فوق أطلال عصر المجون) . ولأن المرأة ملهمته الجمال والفن وفي كنف وصلها يحل الربيع ويسري الضياء وتتعالى الأناشيد القدسية ويسقى شاعرنا الشهد وتصدح أنغامه وتجود عبقريته الشعرية ، فإن غربة الشاعر تبدو

أقسى وأمر وتبلغ ذروة حدتها عندما تتغير حواء وتتلون ويشتم منها رائحة الزيف والكذب :

رنّحتني الآلامُ حين تَرَاءيـ ... تُ سناكِ الوضيءَ وصمة عـار!
أيّ نارٍ تشبُّ ملءَ دمـي أي ... انتحارٍ لخافقي وانكسار ؟
أي ذكرى حملتنيها لتجتثَّ ... صفائي كموجةِ الإعصار ؟
أوَ أنتِ التي نسجتُ هواها ... من حنيني وفرحتي وانبهاري ؟
تزرعينَ الأشواكَ في روحيَ الحيْـ ... ـرى وتمضينَ بي لغير قرار
فإذا بالهوى الجميلِ سرابُ ... وإذا بي أسيرُ رهنَ قفار
مثقلَ الخطوِ متعبَ الطرفِ لهفا ... نَ وحيدا مضيّع الأوطار
أستعيدُ الماضي ولن يُرجعَ الما ... ضي لقلبي غير الأسى والدمار! [٣٥]

واقتران الحب بالشقاء واللوعة قدر العاشقين المحظوظين منهم وسيء الحظ فأشعارهم لا تكاد تخلو من أنة الشكوى والتباكي، لكن ذلك الألم يتعاظم داخل شاعرنا بسبب مثاليته وتفانيه في عواطفه. ويصبح الأمر فوق استيعابه حين يقابل هذا التفاني وهذه الجدية من جانبه ــ والناس يهزلون ــ بالزيف والنسيان في زمن جف فيه ينبوع الحب وذبلت أزهاره

من أنا ؟ لحن في ضمير الدنى
من أنا ؟ وَهمٌ في ضلال الغيوبْ !
روحيَ ظمأى ليس من مَنْهَلِ
يشفي صداها ليس من عندليبْ
لن يسكبَ السحرَ بآفاقها
إلاّ حبيبٌ ، أين مني الحبيب؟
لا يُزهِرُ الحبُّ (بصبارةٍ)
تعيشُ في قفرٍ سحيقٍ جديب ؟١ [٣٦]

يقول كينيث كينستون " إن معظم استخدامات اصطلاح الاغتراب تشترك في افتراض أن علاقة أو ارتباطا ما وجد من قبل ويتسم بأنه طبيعي وجيد ومرغوب فيه قد تعرض للفقدان." [٣٧]وهكذا حين تتراءى صور الزيف والخداع خلف ذلك اليقين الذي يسكن جوانحه تسقط نفسه الظامئة فريسة للاغتراب:

كنتُ وحدي هناكَ وكان الغروبُ
ونُضارٌ على الأفقِ زاهٍ يذوب
رغم صوتِ الطيور العجيب
كان قلبي غريب....
فانا كنتُ وحدي و لا من مُجيب
.. .. ..
لا تقولي نسيتكَ وسطَ الزحامْ
لا تقولي انتهى حبنا في الظلام

حبنا ليس عنه انفطام

حبُّنا لا ينام

حبنا قصة تتحدى الأنام

لا تقولي أنا قد قلوتُ الهوى

فأنا كل عمري صريعُ الجوى

إن قلبي صدٍ ما ارتوى

عاش رهنَ النوى

هو قد ضلَّ في تيههِ ما أرعوى [٣٨]

ورغم مسحة المراهقة الفنية التي تغلف الأبيات السابقة، فإنها تكشف في صدق عن أن القرشي كلما اقترب من رؤية هذا الجانب الخادع والمضلل في الحياة أو الحب أو المرأة، وكلما أجبرته الظروف على الإقرار بوجوده، زادت حدة اغترابه وشعر بأنه يطارد السراب وأنه إنما يمسك الجمر في يده :

تذكرتُ أني في َفدفدي ... أضعتُ بنفسي عتادَ الغدِ

وغيّبتُ عن ناظري أيّ زهرٍ ... سريّ الشذى ناضر المولدِ

وأي جمالٍ أثارَ الهوى ... بقلبي الذي عادَ كالجَلْمَد

تذكرتَ أني الغريبُ الوحيدُ ... وأني الشريدُ فلن يهتدي

وَلِمْ لا ؟ وفي غاشياتِ الأسى أعيشُ وفي لجّها المزبد

أحطمُ أوتارَ قيثارتي لغيرِ محبٍ و لا مُنشِدِ

فحتامَ أرنُو إلى موعدٍ وأضربُ في مَهْمَهٍ أجرد ؟

ويشجي الفؤادَ ضياعُ المنى وتَذوي الهوى قالةٌ الحسد ؟

إلى كم أهَدْهدُ من وَحشتي ولا ثمَ غيرُ اللظى في يَدي_؟! [٣٩]

لقد كان القرشي مقبلا على الحياة يرى في الحب والمرأة تعبيرا عن جوهرها وحقيقتها وحيويتها المتجددة التي تتحدى الجدب والظلام والقبح والموت، وربما لهذا لم يقف وقفة طويلة أمام الموت رغم غزارة شعره وتعرضه لصدمة فقد الأحبة والأصدقاء. غنى القرشي للحياة لأنه كان مؤمنا بها، وأطال الوقوف أمام مظاهرها البهيجة والجذابة والخلاقة التي تتسم بالدينامكية والخصوبة مثل: الربيع والنور والماء والزهر والقمر.وكانت المرأة تلخص تلك المظاهر بكل جمالها وفتنتها وقدرتها على صنع حياة جديدة. لكن الوجه الآخر للصورة موجود أيضا وإنكارنا له لا يلغيه، ومشاهد البشاعة والظلم والعدوان والغدر والخيانة والجدب والفناء وما شابهها أكبر وأوسع من أن ينفع معها تجميل أو ترقيع أو مداراة. ولأنه مجبر كغيره على تأمل تلك المشاهد سقط في حمأة الاغتراب

وقاده ذلك أحيانا إلى الاعتقاد بأن الحياة عبء لا طائل من حمله ولغز لا يستحق عناء التفكير والحل. وإذا لم يكن ثمة إلا المشي في صحراء قاحلة فإن الرحلة ستكون رحلة شقاء وبؤس لانهاية لها إلا السأم والعبث، وهذا ما راحت تبوح به قصائده الوجودية.ويلحظ أنه في أغلب تلك القصائد يمم وجهه شطر الرمزية وانحاز إلى شعر التفعيلة على حساب الشكل العمودي الذي عادة ما يصوغ في ثوبه الزاهي القشيب أشواقه الملتهبة ويتغنى بهناء وصل الأحبة وأيام السعادة والهناء.

المبحث الثاني : الاغتراب والقلق الوجودي:

عبر الشاعر العربي مثل غيره عن مخاوفه وموقفه من قضـــايا مصيرية ذات أبعاد أنطولوجية مثل: ثنائية الموت والحياة ، والوجود والعدم، ووقوع الإنسان في قبضة الزمن الصارمة، ومقــدار نصــيبه من السعادة والشقاء، والمصاعب التي توضع في طريقه منذ مولــده إلى مماته، وعدالة ما يحدث له أمام خلقه الضــعيف الــذي يتهــدده بالفناء. كما تساءل الشعراء في ألم ممض عن قصة الإنسان:بــدايتها ونهايتها وهدفها ومغزاها. وقد شغلت هذه الأسئلة وســواها عقــول الفلاسفة والمفكرين منذ القدم في مختلف الحضارات، وكانت الشــغل الشاغل لعدد كبير منهم وخصوصا في العصــور الحديثــة. ودفعــت الحرب العالمية الأولى والثانية ونتائجهما المفكر الغربي إلى الاتجــاه نحو الإحساس بالظلم الفادح الذي يتعرض الإنسان له في عالم يفتقد المنطق ولا يؤمن إلا بالقوة والأثرة والطغيان؛ فكــان ذلــك الهجــوم الشرس على القيم والأخلاق والدين وفكرة الله ووجــوده، والتأكيــد على عبث الحياة وخلوها من أي معنى وضرورة مواجهــة الإنســان مصيره البائس واعتماده على ذاته كما عبرت عــن ذلــك مؤلفــات

شوبنهور و نيتشه وسارتر والبير كامي وغيرهم. وقامت الأعمال الأدبية الغربية الممثلة لهذه المعاني والصادرة عنها في نشر أفكارها ومعتقدات تلك الاتجاهات والمذاهب الفكرية والفلسفية، واشتهر بعضها وعظم تأثيره وصداه. و صدر الأديب الغربي فيها عن أصالة وعمق، وعبرت أعماله عن مأزق روحي يعيشه ولا يدعيه، وقادته شكوكه الدينية إلى ترك الدين والاعتماد على ذاته في مواجهة الأسئلة الصعبة والحيرة والقلق ليسقط بعدها ضحية للتمزق والشقاء. وقد وصل تأثير هذه الأعمال إلى الأدب العربي المعاصر ورأينا تداعياتها في الأدب السعودي لدى عدد من شعرائه وكان منهم القرشي. واللافت للنظر أن قصائده التي سارت في هذا الاتجاه ضجت بآهات الاغتراب والإحساس العميق بالوحشة والعزلة والإقصاء.وتظهر هذه الروح في أحد دواوينه المتقدمة(موكب الذكريات) في قصيدة (غربة):

تشاجيتُ حتىَّ ألفتُ الأسى
وأنكرتُ لحن الهوى والمرحْ ؟
وفاضتْ بقلبي مآسي الحياةِ
ككأسٍ حوى الخمرَحتى طفح !
فلستُ أبالي أناحَ الهزارُ
على روضهِ للمنى أمْ صدح ؟!

ولستُ أبالي نعيقَ الغرابِ
و لستُ أوالـــي أليـــفـــا نـــزح !
أنا غربةٌ في ضمير الزمانِ
و هـــمسٌ شقيٌ هنا مُطَّرح
أنا شبـــحٌ هـــائـــمٌ مُـــفـــرَدٌ
بصحراء هل يُسْتبانُ الشبح ؟[٤٠]

وفي قصيدة أخرى تحمل العنوان نفسه (غربة) يغرق الشـــاعر في وحدة قاتلة تحاصر روحه وتضغط على أعصابه ويستسلم لها في عجز عن محاربة المقدور أو تغيير نفسه التي يلقي عليها باللائمـــة. إن اغترابه هنا يبدو مرتبطا بتكوينه النفسي والعاطفي والمعرفـــي ؛ ولهذا يفر الشاعر من ضميره فراره من وحش يلاحقه :

عدتُ وحدي أعيشُ فوق البراكيـــ
ـــن و أحيا هُـــــنا حيـــاة الأسيرِ
السفوحُ الخضراءُ ضاعتْ رؤاها
فأنا رهْـــن مهـــمـــة وهـــجـــيـــر
عدت وحدي في قبضةِ العدم المُرِّ
وفي مـــَجْثُـــمِ الظـــلام الكفـــور
غـــارقا في متاهـــةٍ من شجوني
ضاربا في دجى حياتي الضـــرير
أحرقتْ فجري الطروب الموشى
لـــفـــحـــاتٌ من قسوةِ الـــمقـــدور
فحصادي الأنينُ من دَهْري الجا
ثي ونجوايَ لوعـــــــتي وزفيري

ونـــثـــارات غـــابـــرٍ يـــتهـــادى
مـــثل شيخ يدبُّ فوق الصخور
أي ماضٍ نسجت مـــنه أمانيّ
وروّيـــتـــه بـــقـــايـــا شعـــوري ؟
عدتُ وحدي ، كلا ، فهذا شقائي
عاد لي إلْف وحدتي واغترابي!
أتـــراآه أين يـــمّـــم خـــطـــوي
مُـــمْعـــنا في تعـــقُّبـــي و طـــلابي
ليس يَرثي لحيْـــرتي واضطرابي
أو يُرى مشفقا على أوْصـــــــــابي
أتـــراآه فـــي مـــطالـــع صُبحي
وضحائي وفـــي المساءِ الكـــابي
أتـــراآه فـــي الـــــظلام كـــكـــابـــو
سٍ يشـــنُّ الـــوغى عـــلى أعـــصابي
موغـــلا في الأذى مُطيفـــا بحسي
زمجراتِ الأسودِ وسْـــــط الغاب
كـــلـــمـــا شـــمتُ في حياتي نَبعا
سحـــر النبع لي فـــكانَ سرابي
أو تنـــورتُ فـــي مَسيري طريقا
رَبـــضت نـــارُه عـــلى أعـــتابي !
.. .. ..
عدت وحدي ،لا بل فهذا ضميري
مـــستـــثارٌ يهفـــو إلى إحـــراقي
هو قيدي الباقي يعضُّ ضَراعا
تي ويلوي عـــن الأماني سباقي
أيُّ قـــيـــدٍ يـــغـــلُّ دُنـــيـــا حنـــيـــنـــي
ويـــثـــيرُ الشجـــون في خـــفاقـــي[٤١]

ولا يبدو تصويره تأنيب الضمير وعذابه يهدف إلى الإشارة إلى القيمة الأخلاقية لهذه الملاحقة في نهي النفس عن شرورها وغوايتها،بقدرما يصور اعتقاده أن في تلك الملاحقة يكمن أحد جوانب المأساة الإنسانية أو مأساته هو على الأقل كما تكشف عن ذلك مفرداته وصوره سواء قصد إلى هذا المعنى أم لا. فعذاب ضميره يقلب سعادته إلى شقاء ، ويحول بينه وبين الاستمتاع بحياته، ويوقعه في قبضة البؤس والتعاسة حين يحيل النبع إلى سراب والنور إلى نار، ويحاصره في الليل والنهار، ويشن حربا على أعصابه موغلا في إلحاق الأذى به قاصدا إلى شل حركته ، تاركا إياه فريسة للحزن والإحساس المزلزل بالوحدة والفردية الموحشة. وهكذا بدا الشاعر كأنه يستعير التصور السارتري للأثر المحبط والمدمر لعذاب الضمير الذي وقعت فيه اليكسترا وخافت من ويلاته في مسرحية سارتر (الذباب) في حين هزأ أخوها أورست منه وخرج لملاقاته، أما القرشي فقد اكتفى بالإقرار بضياع الأخلاق ونعى سقوطها متألما لبقائه هو في أسر ضميره وتحكماته :

فِيمَ هذا الرقيبُ يَغْلو اقد عا
د عــدوّ النفاق عَــبْد النفاق ؟
عـــــادَ كلٌ يرى الحياة نعيما
إن تناءتْ عن قبضة الأخـــــلاق
ويرى الـــــذل أن يعيشَ بعيدا
عــن عــبــوديّة الثراء الباقي
سالكا للوصـــــول أيّ طريق
حاطــما للــنــعــيم كلَّ وثاق
ضاع معنى الضمير،فيمَ ضميري
يقتضيني مباهجي و انطلاقي ؟ [٤٢]

وفي قصيدة أخرى بعنوان (غروب) وقف الشاعر بروح مفعمة بالألم متأملا منظر الغروب أمامه متحسرا على شمس عمره الغاربــة في رحلة كان الغريب فيها والسجين الذي يرسف في قيــده ويلاحــق السراب :

شفتاي مطبقتان لا تتساءلان !
ويدايَ في القيد المُدمّى ترسفان
وأنا هنا أنشودةٌ ولهى ولحنٌ لا يبين
قيثارةٌ لــم ينسكبْ منها الأنين
رغــــــــــــــــمَ الزمان
رغــــــــــمَ ارتعاشاتِ الهوان
أستمرئ العيشَ المهــــــــين
عيشي على مــرّ السنين ! [٤٣]

ويتأمل ماضيه فلا يرى فيه إلا صور البؤس العقيم والعبير الذاوي الذي لم يترك اليأس فيه أملا للغد:

وغدي ؟ وأيّ غدٍ يلوح ؟
لمعذَّبٍ دامي الجروح !
يمشي وتتبَعهُ خطاه
أيّان لا عينٌ تراه
لا همس تتبعه رؤاه
تهديه آثارُ القطيع
في رحلة لا تنتهي
والغيبُ يحجُب عنه ركب السائرين ! "

و يختار القرشي في هذه المقطوعة ألفاظه بعناية محاولا تلوين حسها الأنطولوجي ما أمكنه ذلك ، لكن القصيدة تستجيب عادة لمثل هذه المحاولة على نحو معاكس فتعبر عن نفسها بطريقة أعمق وأوقع أثرا، خصوصا إذا كان كاتبها يعيش قلق لحظتها الشعورية. ويظهر الشاعر في القصيدة فردا في قطيع يساق إلى مصير مجهول لا عين تراه ولا عناية تتبعه . وتساوره الشكوك في مصير الجموع التي سيقت قبله وحجبها الغيب أو المجهول عنه. و يكون الاغتراب عادة وليد الشعور باليأس والإحباط ، لذا فإنه لن يجد مناخا تنشط فيه أحاسيسه المتشائمة وأفكاره السوداء أفضل من الفلسفات

الوجودية وما تزخر به من قلق وشك ويـــأس وتمـــرد. ولا شـــك أن الشعور بالاغتراب هو أحد مرتكزات العالم الرومانسي الـــذي يأخـــذ طابع الحزن والاستكانة واستعذاب أسى الوحـــدة والفرديـــة " إنهـــا الذات الرومانتيكية تبحـــث عـــن نفســـها ،وبهـــذا المفهـــوم كانـــت الرومانتيكية نوعا من التمرد الميتافيزيقي على العصر. وقد مـــزق الرومانتيكي أقنعة الرياء في الاعتراف بالحزن المطلق ولـــيس فـــي مجابهة الواقع ، لأن مواجهته لا تعني إلا القبح وهو يحلم بيوطوبيـــا لا بثورة." [٤٥] لكنه في ظلال الوجودية يعبر عن خلجاته أحيانـــا فـــي تمرد ورغبة في مواجهة المصير وسط المخاطر والمخاوف :

الأفقُ ينذرُ ؟.. لستُ أذعر للنذير !
والشكُّ يطمُرُ فيَّ أنغام الحبور
هذي شرور !
دكناءُ تسبقُها شرور
هذي ظُهور
حمراءُ تلهبُها السياط
لم يبقَ من شمسي ترفرفُ للغروب
غيرُ الشفـــق !
شفق سيمحوه الأفق !
والأفقُ ينذر لستُ أذعر للنذير ! [٤٦]

إن هذا الرفض الميتافيزيقي الذي تعبر عنه القصيدة وهذه اللامبالاة التي تطل منها نلتقي مجددا بها في نصوص أخرى. وكأنما " قفز الفشل الوجودي إلى مركز الوعي الإنساني متأثرا بالظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي سيطرت على عصرنا، وأدى هذا إلى انشقاق وعدم انسجام بين الإنسان الشخص والعالم . وكانت هذه المقولة هي الإحساس الذي قاد الإنسان إلى مشاعر اللانتماء." [٤٧] وفي قصيدة بعنوان (بحيرة العطش) يقع الشاعر كليا تحت وطأة الإحساس بالتفاهة والعبث والغربة . بيد أن اغترابه هذه المرة يحثه على الانسحاب والتقهقر :

أتسأليني مَعْبَرا ؟ لا تسالي !
سفائني تسيرُ لا يدفعُها شراعْ
تحضِنُها شواطئُ الحرمانِ والضياع
أعيشُ لا متاع
وليس لي من زادْ
في زحمةِ الحياةِ غير لحنيَ الجريح
وغير وجهك الذي بدا كواحةٍ من الترف
لأنني في رحلتي عشتُ بلا هدف !
.....
مستقبلي ؟
مستقبلي أمسٌ مضى فلا يعود
ذبحتُه فهو شهيد
وقد نذرتُ للشقاءِ خبزيَ العتيد
أغلقتُ شباكي على سرابه البعيد

وعشتُ وحدي
للأسى للشوكِ للقيودْ
كقاتل لا يعترف !
.....

وكم هتفتُ من جَهامة المساء
وبُحَّ في قِيثارتي النداء
يا موْكبَ القرصانُ عدْ بي إنني وحيدْ
عُدْ بي قد مزّقني العناء
عُدْ بي قبلَ أن تجفَّ في عروقيَ الدماء
عد بي فاني لاهثٌ مضيّعُ الغناء
كأنني أرجوحةٌ يهزُّها القضاء
يُثقِلني سرٌّ غريبُ الهمس ساغبٌ عنيدْ
مرنّحا مشرّدا
تحملُني صُدف ! [٤٨]

و يصدر الشاعر في النصيين السابقين المغتربين عن روح مفعمة باليأس والحزن والوحشة، وإذا كانت هذه هي أجواء الرومانسيين ومرتكزات عالمهم الشعري والشعوري، فإن قلق الوجوديين يعبرعن نفسه هنا في جلاء ووضوح، هذا على الرغم مما يمتاز القرشي به عموما من روح متفائلة قوية الإيمان بربها وبعدالة قضائه وقدره، ومن السهولة بمكان ملاحظة ذلك على امتداد شعره الغزير. ويبقى السؤال حول أصالة هذه الأفكار الوجودية في الشعر العربي الحديث خصوصا عند أولئك الذين ينتمون إلى بيئة محافظة

تتمسك بتعاليم دينها الحنيف ومبادئه السمحة مثل شاعرنا . يقول الدكتور عزالدين إسماعيل: " حقا إن بعض محاور النغمة الحزينة في شعرنا المعاصر قد تكون أصولها وافدة كالإحساس بالغربة والضياع والتمزق ،ولكن عبثا نحاول رد هذه المعطيات إلى تأثر شاعرنا بالشعر الغربي ، وإنما هي في الحقيقة أثر لفنين أدبين آخرين هما الفن الروائي والمسرحي ، بخاصة الروايات والمسرحيات الوجودية التي ترجمت إلى العربية ،ولدراسة كولن ويلسون عن (اللامنتمي) التي ترجمت كذلك منذ أعوام إلى العربية واستفاض الحديث عنها .....ومع تسليمنا بتأثر شاعرنا المعاصر بهذه المحاور الوافدة فإنه لا يمكننا أن نحل الإشكال ببساطة حين نرفض هذه المحاور الجديدة في شعرنا المعاصر على أساس أنها ليست ببساطة أصيلة وليست نابعة من ظروف حياتنا الخاصة ولاهي بزغت وترعرعت في أرضنا. ذلك إن الاستجابة للتيار الوافد لا تقل أهمية ودلالة عن ظهور التيار الجديد الأصيل." [٤٩] والواقع أن انجذاب القرشي في جزء يسير من شعره إلى الوجودية والوجوديين لا يعني تبنيه لفكر تلك المذاهب والفلسفات العدمية، بل الأقرب أن تكون تلك الإسقاطات من تداعيات نفسه المغتربة التي يصدمها الفارق بين الواقع وما تحلم به، أو ما

كان من المفترض أن يكون. وربما ينطبق ذلك على عدد من شعراء العربية الذين عانوا من القلق الوجودي الذي لا يعبر في أغلب الأحيان عن مأزق روحي ، بقدر ما يكشف عن تصادم بين الإرادة الفردية والإرادة الجماعية . وربما لهذا اعتقد بعض الدارسين أن هذا القلق الميتافيزيقي ليس أصيلا فالتجربة الوجودية " ليست بالتجربة الأصيلة في الكتابة العربية الإبداعية، إن ما يتهدد الفرد العربي من مخاطر فعلية لا يقع في ممارسة الإرادة بشكل وجودي واضطرار الإنسان إلى أن يختار بين إمكانيات غير محدودة، بل في انمحاء الإرادة الفردية بفعل قوى تقع خارج نفسه." [٥٠] وإذا كان الإنسان الغربي تبنى الوجودية والفلسفات العدمية وغيرها لأسباب جوهرية وثيقة الصلة بطبيعة ما تحمله تلك الفلسفات من أفكار ورؤى منحرفة، فإن انجذاب الأديب العربي نحو هذه المذاهب وتمثلها في إنتاجه الإبداعي كان بفعل عوامل أخرى وقضايا خارجية قد لا تربطها صلة حتمية بجذور الوجودية الفلسفية والفكرية والروحية . ومن الملاحظ أن "الموضوع الرئيسي في الرفض في الشعر العربي المعاصر يتجه بصورة أكبر نحو رفض العالم الخارجي، والاجتماعي والسياسي. ويبدو أن انشغال الشاعر يدور بصورة أكبر حول

مشكلات الحياة لا الموت، حول هذا العالم لا العالم الآخر. فالخطر اليومي الذي يتهدد حياة الفرد يمثل الخطر الأكثر قربا إلى تفكير الشاعر.....ولقد بدا الكثير من الرفض لدى الشعراء على شكل إشارات غامضة لدى أفراد أحسوا بعناصر الخيانة و اللاجدوى في الحياة السياسية والاجتماعية فرفضوها " [٥١] وتظهر بعض أشعار القرشي أنه كان من الذين صدموا بذلة العرب وهوانهم وعجزهم عن استرجاع حقوقهم المغصوبة رغم شرعية هذه الحقوق ، ورغم كل تلك الأمجاد والبطولات التي تؤهل الإنسان العربي للتصدي لغاصبيه والدفاع عن نفسه وعن أرضه . ومع أنه ظل يؤمن بقدرات المقاتلين العرب إلى آخر لحظة في حياته وتتعلق روحه المحبة المخلصة ببارقة أمل مهما كانت ضئيلة أو مستحيلة، فإن قسوة الواقع دفعته ــ كما دفعت غيره ــ إلى استشعار روح اليأس والتمزق بين ألم ووحشية وعبثية ما يرون وبين ما يقوله لهم وهج وبطولات التاريخ العربي.وقد عبر هذا التمزق عن نفسه في عدد من القصائد القومية التي أبانت عن فجيعة الشاعر في قومه على نحو أبرز الهم القومي كأحد أهم مسببات الشعور بالاغتراب في تجربة القرشي الشعرية.

المبحث الثالث : الاغتراب والهم القومي:

إن نظرة سريعة في شعر القرشي الذي خصصه لنصرة قضايا قومه والدفاع عنهم ورثاء شهدائهم لكافية إلى لفت النظر إلى الروح الحماسية التي ينطلق الشاعر منها في كتابة أشعاره القومية، وروح التفاؤل و الثقة في قدرة المقاوم العربي على انتزاع حقه من غاصبيه وتسجيل انتصارات مدوية يتواصل فيها الأحفاد بالأجداد. لكن الإيمان يزيد وينقص ومع توالي الأحداث المأساوية والمؤسفة كان لابد أن يواجه الشاعر كثيرا من الأسئلة الصعبة والاحتمالات المرعبة والتفسيرات الموجعة ، ولم يكن هناك بد من أن تطبق روح اليأس عليه وتحاصر إيمانه وتفاؤله . واليأس عدو القرشي اللدود، و رؤاه لا تحل في أحد نصوصه حتى يفقد الرجل اتزانه ويغادره تفاؤله ليسقط بعدها في قبضة الاغتراب وتتنفس قصائده روح القلق والضياع. فالحياة جميلة فاتنة خصبة معطاءة هذه حقيقتها وجوهرها عنده ، وحين يبصر فيها وجها للقبح والبشاعة والخراب والظلم يغترب القرشي وترتفع آهاته شاكية الغربة والعزلة . هذا بالإضافة إلى البعد التاريخي الذي يثبت

حضوره على الدوام في رؤيته الإبداعية كما يظهر من إنتاجه النثري والشعري بحكم دراسته التاريخية التخصصية وعلاقته الوثيقة بـه " و تغذي دراسة التاريخ في ثقافة القرشي هذا المعنى الفكـري فـي رؤياه الإبداعية، فالماضي لا يكف عن الوجود في العمل الأدبي الذي يبدعه باعتباره تلك الذات التي لم تعد تعبر عن صميم وجود الشاعر، أو تلك الأنا التي لم يعد وجوده سوى معارضة مستمرة لها، وقد نرى في نموذج عنترة اتحاد بالماضي العربي، وعندئذ نرى الشاعر وفيـا للماضي مخلصا له، ما يلبث أن يتحول عنده إلى قوة دافعـة لبنـاء الحاضر. " [٥٢] لكن الواقـع العربـي الكـارثي أكبـر مـن التفـاؤل والمتفائلين، وأمام تلك النظرة المجلة للتـاريخ المجيـد والماضـي العريق ، وقوة الانتماء للجذور لم يكن ثمة من مهرب لـدى بعـض الفئات إلا الأوهام ومعاقرة الأحلام والأماني العذبة، أو مواجهة الواقع بروح يائسة انهزامية تجتر أحزانها وآلامها فـي إحسـاس مزلـزل بالضياع والغربة :

عَلى سور الضياع
بساحَة الأشجانْ
ومنْ أرض الضّحَايَا
في صُخُور الشمع
غَنّتْنِي الرِّيَاحُ السودُ
حَمْلقَ فِيَّ وجدانُ القطيع

أطِلّ مِنْ عَيْنِ المساء الصيفُ
هشَّ السِّجنُ والسَّجانْ
وزفَّتْني القنَاديلُ الضّبابيّةْ
إلي .....إلي
مُدي الظلَّ وارْتَفِقِي
وَرَائي يَا حَوَاري الحُزنِ في الغاباتِ
يا دُنيا الكآبةِ.....
سَلْسلي المأساةَ وانطلقي
سحابتُكِ المطلّةُ في دمي
تَسْتَنْبت الأشواكَ في عنقي
تُضَاعفُ غُرْبَتي بصفَائِح الفولاذِ كالغَسَقِ
تَدَاعَى النَّجْمُ في الطُرُقاتِ
جَفَّ النّهْرُ.....
وارْتَطمَتْ رُؤَى الآفاق بالشّفَقِ ! [٥٣]

إن الروح الاغترابية تزحف في النص السابق على مفرداته في مبناها ومعناها وعلى صوره ونبضه وأجوائه . وتتلاشى أطياف تلك المخلوقات الجميلة الرقيقة التي عادة ما يزدحم عالم القرشي الشعري بها لتحل محلها رؤى الجفاف والجدب والحدة والغلظة، فليس هنا سوى الصخور والرياح السود و الأشواك و صفائح الفولاذ الملتهبة والسجن والسجان . وتعبر صوره عن يأسه وإحساسه بالمأساة تدفع بقومه في طريق مسدود وتؤذن بوقوع الكارثة و النهاية ، وماذا بعد جفاف النهر وتهاوي الأنجم وارتطام الشفق بالأفق ؟ والصورة الأخيرة من التصورات التي يعاود الشاعر

اللجوء إليها في نصوص أخرى، وهي عنده منتهى اليأس وانقطـــاع الأمل . ويلوذ الشاعر عادة بالرمزية ووشاحها الشفاف إذا ما رغب في البوح والكشف عن أحزانه دون أن يجرح إحساسه بالمســؤولية والخوف من بث روح الهزيمة وتثبيط الهمم والعزائم . ولكن جــرح العرب النازف يتسع ومصابهم يتضاعف مع الأيام ، وكان من الطبعي أن يشعر القرشي مثل غيره من شعراء العربية أن الشق أكبــر مــن الرقعة وأن الهروب إلى الوهم أقسي كثيرا من مجابهة الواقع :

أنْ تجْهَدَ في تبْرير الأخطاء
أن تمشيَ فوق سُطوح الماء
أن ترقصَ أعزلَ متّشِحًا بسلاح الوهم
وتستخفيَ عبرَ الأضواء
أن تغْرقَ في تيَّار الأهواءْ
أن تمضَغَ شوْكَ السُّهْدِ
وتستنديَ قيظَ الصحْراء
أن تتلاشى فوقَ رَمَادِ الريح
أن تستنبتَ مَطَرَ الحقْد
وتحسبَه أزهارَ الحُلْم
أن تَنْدسَّ مع الأشباح الغرباءِ
وتُعانق مَقرورا أطيافا هوْجاء
فحياتُك مَضْيَعةٌ ورمادٌ وهباء ![٥٤]

وهكذا يتحول الهم القومي في شعره إلى أحد أبــرز المشــاهد فــي تجربة الاغتراب لديه إلى الحد الذي أمده بلغة خاصة بــات الشــاعر

يركن إليها في هذه النوعية من قصائده ؛ إذ تعج مشاهدها بالعواصف والريح والأشواك والقيود والتيه والضياع وإحساس بالعبث والجدوى والسير حثيثا إلى أحضان الهاوية ، أما الغربة وبردها القارص فهي بداية ذلك المشد ونهايته . " فهنا تتلاحم الأبعاد الثلاثة للمأساة عند شاعرنا أي يتلاحم البعد الذاتي والبعد القومي والبعد الفلسفي ، ذلك لأن المشي على سطح الماء هو المستحيل ...هو العبث هو اللامعقول ..هو اللاجدوى . وهذه المشاعر نجدها تتردد عند فلاسفة الوجودية تعبير عن إحساسهم بالحياة وهي أبلغ تصوير لوجدان الشاعر الذاتي والوجدان الجماعي لأمته العربية التي تمشي فوق سطوح الماء.."[٥٥] ويختم الشاعر قصيدته السابقة بأخطر ما يمكن أن تتعرض له نفس آمنة مطمئنة تؤمن بجمال الحياة وان الغلبة للحق والجمال والضياء والخصب والنماء ؛ إذ يهاجم روحه الإحساس بالزيف والكذب والبهتان ؛ فوجه محبوبته السمراء التي غنى لها ومجدها في شعره ليس سوى غواية وضلال وسراب خادع . لقد بذل مهجته وعصارة روحه إذن من أجل حمقاء مرائية ومزيفة:

مزَّقتُ حنايا الليلِ ألومُكِ ياسَمْراء
وأجرِّبُ أقنعتي سوْداءَ وحمراء
وأعانقُ أشرعتي في كَبِد الدَّأماء
يانارا تُلهبُ أوردةَ الصحراء
يا ظمأ، وسرابًا ، وظلامًا ، ورياء
يا شَفَقا يتلوَّنُ في كِبد الشمس الصفراء
أعْفَيتُك مِن لَوْمي ، أبغضتُكِ ياحَمْقاء ![٥٦]

وفي قصيدة (عندما تحترق القناديل) يبلغ القرشي ذروة الإحساس بالخيبة ومرارة الهزيمة، وتتحول تلك الشخوص العملاقة وذلك الحضور المهيب لقامة أمته إلى ظل خائف وتمثال نحاسي مفقأ العيون . يقول في مقطعها الختامي :

سَحْقُ القيدُ أقدامَنا
ونعيشُ ، ونمشي ، ظلالا ، ظلالا
تماثيلَ ماضٍ نُحاسيةً
بذورا خُرافيةً في حقول الصدى
وعيونًا مفقّأةً بالنعاس
وأسرابَ جَرْحَى ، فلولا ، فلولا
وَأشرعةً خائبة ! [٥٧]

إن المتأمل في تلك المساحة الشعرية الشاسعة التي منحها الشاعر لقومه وأمته ليلفته كيف استأثرت النبرة الحماسية بمعظم القصائد القومية التي جاءت ضمن ما يقارب ثلثي إنتاجه الشعري، بينما أخذت تلك النبرة في قصائد الثلث الأخير من ذلك الإنتاج تخفت وتكاد تتلاشى دون أن تغادرها روح الأمل والتفاؤل أو يتركها حماسها الذي كان يستيقظ من وقت لآخر لائذا بنماذج البطولة العربية المشرفة من جاهلية أو إسلامية. وقد اقتصر استدعاء النموذج التاريخي والإنساني في شعر القرشي على ذكر الأسماء واستخدامها على طريقة المشبه والمشبه به . ويبدو أن طريقة الشعراء المعاصرين له في التعامل مع عدد من النماذج والشخصيات التراثية في شعرهم لم تجذبه على الرغم من شهرة بعضهم من أمثال أمل دنقل والبياتي والسياب وغيرهم . كذلك لم يحاول الاعتماد على الأساطير العربية أو الغربية ــ إلا في حدود ذكر الأسماء ــ وكان بإمكانه توظيف الرمز الأسطوري في قصائده القومية المغتربة على اعتبار أن الأسطورة من أهم مظاهر الاغتراب في النصوص الأدبية . والمحاولة اليتيمة للشاعر في هذا الصدد قصيدة بعنوان (غادتي "شهرزاد") .و تعود ملكية شهريار في تلك القصيدة

إلى توفيق الحكيم في مسرحيته (شهرزاد) عندما فقد نهمه الحسي لاعتبارات فكرية وفلسفية طرأت عليه بعد أن فتحت شهرزاد باب المعرفة أمامه على مصراعيه ، الأمر الذي أفقده اتزانه ودفع به إلى ما يشبه الجنون.أما شهريار عند القرشي فإنه يتحول ذلك التحول الخطير بسبب الزمن وأحكامه القاسية التي لا مفر من الرضوخ لها والانصياع لأوامرها إلى جانب ما بات يثقل كاهله من هزائم وانكسارات:

ارجعي (شهرزاد)
ارجعي فالحُداءُ القديمُ تعَالى
وظلُّ المساءِ تمددَ
وانهارَ فوقَ أريكتهِ (شهريار)
عاد طفلا بريئا
يخوِّضُ في النهرِ حرا
ويلتحفُ الانكسار
سيفُه لم يعدْ مُصلتا مشهَرا يتحدى
صدُورَ الصبايا الصغار
سيفُه عادَ من خشب الوردِ
في ذلةِ الاحتضارْ
أغمد السَّيفَ منكسرا ومشى حاسر الرأسِ
يَبْكي ، ويَمْرَحُ
يُسقط حتى بقايا الإزارْ
قد تولّى النهار
ارجعي هي ذي الأرضْ ممطورة
ونسيم الزهور تَماوجَ
في رَدَهاتِ الأمل
والقمَارى تلحِّنُ ــ ثمةَ ــ سكرى

فنونَ الغزل
إيه قصّي علينا حديثك
واسترسلي ، جُنّ فينا السَأم
قد سُقينا المراراتِ في كل كأسٍ
وشُلَّت أحاسيسُنا ــ في دروب الأفاعي ــ مروَّعةً
وشجَانا الندم ! [٥٨]

إن الهم الشخصي ومخاوف الشاعر من زحف الشيخوخة وسطوة الزمن يستولي على البعد القومي في النص ولا يترك له إلا مساحة هامشية. وهو يطلب من شهرزاد ابنة الأسطورة المزينة بالرؤى القرشية أن تنقذه من سأم المرحلة المقبلة وتبعث الحياة في أرضه التي توشك على الإقفار.وهكذا يعيد الشاعر شهريار الحكيم إلى قلب الأسطورة مجددا بكل منطلقاته الجنسية والنفسية واحتياجه العاطفي وشغفه الطفولي. لكنه عند القرشي لا يتجه إلى هذه الوجهة بدافع الانتقام والحس الشره النهم كما في الأسطورة الأصلية، بل بدافع الخوف من سطوة الزمن والرغبة في الاختباء من ظله الكئيب في أفياء حواء وحدائقها اليانعة المزهرة. ولا شك أن استثمار الأسطورة على هذا النحو يعد إضافة مهمة لها، ومن الإنصاف أن يحسب للشاعر. وإذا كان الهم الشخصي استأثر بنبض القصيدة السابقة فإن هناك عددا من النصوص خلط الشاعر فيها بين أحزانه وأحزان قومه وغربته وغربتهم، وتنقل بخفة ورشاقة بين

الجرحين في خط متعرج متشابك ومتطابق أحيانا، وذلك عندما يتحد الصوتان ولا نعود نعرف من الذي يشتكي ويتأوه ؟ومن قصائده التي تسير في هذا الاتجاه قصيدته (زخارف فوق أطلال عصر المجون) وهي من شعره الجميل الذي يبرز اتساع رؤيته الشعرية وانفساحها أمام عدد من التأويلات التي تجد مكانا لها داخل نص غائم بالرؤى الحزينة والذكريات العبقة ومشاعر الحنين والغربة والوله والحسرة على تدنيس الطهر والصفاء في عالم القبح والبشاعة:

سماويَّةٌ أنتِ علوية
فوق أرضٍ من الطين ، والحقد ، والعهر
تُرعشها خيلُ كلِّ المرابين
فوق منارات عصر المجون !
.....
وقلبي الترابيُّ
تحصده أذرعُ النار في هيكل القحط
تخذله ذهلةُ الحلم
يرفضُهُ شجرُ الورد و الياسمين !

سماويةٌ والثرى مخصبٌ بالمهانات
ممتزجٌ بأنين الثكالى الغريقات
والكونُ منفى الحثالات
مهترئٌ
غارقٌ في التوافهِ حتى الجنون ! [٥٩]

لقد سجل الشاعر إخفاقاته وهزائمه العاطفية في قصائد كثيرة، وبكى إخلاصه وتفانيه الذي قوبل بالغدر والجحود في دنيا لا تعتــرف بالمشاعر الصادقة والطهر والصفاء. وهــذا مــا تتلقــاه محبوبتــه السماوية هنا، وقد تكون هذه المحبوبة الحجاز أو الديار المقدسة في فلسطين أو الحضارة الإسلامية عموما لصبغتها السماوية والنورانية (وربما يختلط كل هذا بذكرى حبه الحجازي الأول: فتاة الشرفة) إنها تعاني ــ مثله ــ من هجمة الحقد الشرسة الدموية في زمــن جنــون المادة وتفاهة الفاسدين والمنتفعين. ولا يماثل عطشه للحب وظمــأه للحياة وينبوعها الثري المتدفق إلا شوق هذه الأمة لماضيها وعبــق ذلك الماضي وألقه وعنفوانه .و في ظل شعورهما بصــعوبة اللقــاء واستحالة الوصل يتعذب الاثنان:

وأعرف أن التداني مُحالٌ
وأنَّ اقترابَ المسافاتِ ما بيننا
قدرٌ مستحيل
وأن انبهارَ العيون بومض الهوى
برزخٌ لا يهون !
.....
وأعلم أنَّ الزحامَ مضلٌ
وأن المنى وجعٌ مستبدٌ

وأنكِ عطشى إلى النهر

والنهرُ معتكرٌ ثائرٌ

والرمادُ يسربلُ

كلَّ الحصون

.....

دعيني أخوِّضْ في الترهاتِ

وحيدا غريبا

ولا تحفَلي إن رأيتِ المكبلَ

يُقتاد مرتهنا للمآسي

ويُلقي بأعماقِ تيه السجون !

لقد انحاز الشاعر في قصائده القومية المغتربة إلى شعر التفعيلة و ومال إلى تقسيم تلك القصائد إلى مقاطع أو مشاهد أداها بطريقة غنائية مفرطة شكلا ومضمونا . وليس من غرابة في ذلك فهو شاعر مطبوع عرف بسيطرته التامة على ألحانه من خلال علاقته الحميمة والممتدة بالشعر العمودي بموسيقاه الفخمة الشجية التي لطفها الحس الأبوللي المرهف وصبغها القرشي بلونه الخاص بكل ما عرف عنه من أناقة وذوق رفيع. لكن الشاعر بدا في بعض تلك القصائد كلفا بمطاردة القافية مسكونا بالهاجس الموسيقي على نحو أساء لعدد منها وصبغها بطابع السطحية ، هذا مع أن الشكل الجديد يعطيه من

الحرية ما يهيئ له الانصراف إلى متابعة الرؤية الشـــعرية واللحظـــة النفسية التي تعيشهما القصيدة فهما أولى بالعناية والرعاية. ومع هذا فإن القرشي أثبت من خلال شعره القومي ــ والعاطفي والوجودي ــ الذي عبر عن اغترابه و فجيعته في قومه، أثبت نجاحه في التعامـــل مع تقنيات الشكل الجديد وإخضاعه وإخضاع الرمزية لذائقته الخاصة ومزاجه الكلاسيكي.ومن اليسير ملاحظة كيف ازدحمت تلك القصـــائد بالمخلوقات الشائهة ورموز الجـــدب والجفـــاف والبشـــاعة والغـــدر والقسوة كالغربان والأفاعي والحيتان والذئاب والجنادب. واعتمـــدت مرتكزات تلك المشاهد وخلفيتها على الريح والصـــحراء والصـــخور والليل والظمأ والأفق الدامي، وغالبا ما يظهر الشاعر وسطها سجينا يرسف في قيده دامي الجرح مطبق الشفتين مضيع الألحان لا يأســـى أحد لمصابه. أما اغتراب الشاعر عن وطنه لأســـباب اجتماعيـــة أو فكرية فهي تجربة أخرى تميزت بسمات وملامح مختلفة.

المبحث الرابع : غربته المكانية والزمانية :

تقلب الشاعر في عدة مناصب تعليمية ووزارية ، كما عمل سفيرا لبلاده لدى موريتانيا والسودان ، وعرف بكثرة أسفاره ورحلاته و اتساع مشاركاته العلمية والثقافية. وقد عاش فترات من حياته مغتربا عن وطنه، و أتاح كل ذلك له أن يعيش حياة حافلة وتجارب كثيرة سمحت له بالاختلاط بمختلف الأجناس والمجتمعات لتزداد خبرته بنفسه وبالآخرين . وإذا كانت المعرفة حزنا ــ كما يقال ــ فإن ما كتبه القرشي من وحي هذه المعرفة ، وما انتهى إليه في آخر أيامه من اعتزال الناس والمجتمعات ، يظهر أن ما تكشف له من أحوال الناس كان فوق احتماله وقدرته . ولم يكن يعرف الشاعر عموما بميله إلى حياة الصخب ولفت الأنظار، وكان من الزاهدين في الأضواء وفتنتها رغم مكانته العلمية والشعرية . كذلك اشتكت روحه ألم الغربة عن الوطن والأحبة والأصدقاء ، واشتاقت نفسه المجبولة على الوفاء والإخلاص إلى معانقة ربوع مرباه وذكريات صباه وأحلامه . وقد عكس شعره التداعيات الشعورية لغربتيه الإجبارية والاختيارية على نحو يدل على

أصالة هذا النوع من الاغتراب في شعره ، وأنه لم يكن من تهويمات العالم الرومانسي الذي ينتمي إليه الشاعر قلبا وقالبا . ومن القصائد التي سجل من خلالها تداعيات غربته المكانية قصيدة (مذبح الحـــب) وهي من وحي زيارته لباريس . و تظهر القصيدة دهشته من جـــرأة الفرنسيات وصدمته من طريقتهن العملية في الحب ، بينما يفضل هو طريقة الشرقيين بحيائها وسحرها وخصوصيتها وغموضها :

في(باريس)عَرقتُ الجمرة
وعَرفتُ اللوعةَ والحسرة
وكرهتُ الرّاءَ الملثوغةَ في وحشيّة
تُخفيها نظرةٌ جنية
تُبديها همْسة مأجورة
من بينِ شفاهٍ مسعورة
فأنا شَاعرْ
لا يكفيهِ رُواءُ الصورة
لا يرويه ضَبابُ الجنسِ الأحمرْ
يهوى في الإنسانةِ روحَ الشرقِ الأخضر !
.....
في (باريسَ) جرعتُ الغصة
فكأنيَ طفلٌ محرومٌ من أبويهِ
وتراءيت كلابَ الصيد تُهرولُ نحوي
تلعق من أقدامِ الطرقِ
لا تعرِفُ معنًى للغسقِ
تجري لاهثةً لتعيشَ كلابُ الصيدِ
من خفقات غريبٍ أسمرْ
يستوحي (الكُونكُورْدَ) قصيدة
ويعيش خيالا ومثالا.... [٦١]

ويقلق القرشي المشاعر العدائية التي تكنها باريس له ــ كما يتصور ــ وهذا يدل على تفاقم إحساسه بالغربة. ويشعر أن كلاب الصيد تطارده وتتربص به شرا ، وبأن عاصمة النور ــ كما يسمونها ــ تسخر من سذاجته القروية ومثاليته الرومانسية . لكنه يدرك من جهة أخرى أن مشكلته ليست مع المكان وأن غربته لم تكن مكانية وحسب ، بل روحية تعزله داخل أسوار تمنعه الضياء وتطفئ نار روحه المتقدة :

وتراءيتُ جدارَ العزلةِ كالأسوارِ
يحجبُ عن عينَيّ وميضَ النارِ
فكأني قنديلٌ مطفأ
في حجرةِ أعشى أعزلَ سكيّرِ
نسيته قافلةُ النورِ!
.....
في (باريسَ) شعرتُ بغربةِ رُوحٍ ثكلى
أحسَسْتُ بمصرعِ أحلامي
فبناتكِ (باريسُ) سُكارى عن أنغامي
في لحظاتِ الحبّ العَجلى [٦٢]

ويغرق في تفاصيل المكان يبحث فيه عن شيء يشبهه ويبدد غربته. وتتوثق صلة الإنسان بالجماد والحيوان عادة عندما ينقطع ما بينه وبين البشر وينفض يديه من عالمهم ويزهد فيهم وفيه. ويبدو أن حسية باريس المكشوفة تجرح كبرياء عواطفه المتأججة التي كانت تعلق أمالا كبيرا على زيارتها لباريس الأسطورة أمل المحرومين الظامئين للفن والحياة:

وأسيرُ بشارعكِ الأبيضِ أغسِلُ يأسي
في شلالاتٍ ضوئية
و " الفسقيّاتُ " الأربعُ ترمُقني
كعرائس بحرٍ ذهبيّة
في صُفْرتِها لهفةُ أجْوائِي الشفقيّة
أمسحُ من حبّاتِ المطرِ
عن نظارةِ طرْفٍ مسهدْ
أوَ ذا ما يملكُه الشاعرُ في أقّيائكِ يا (باريسُ) ؟
أهْديتُكِ لرُوحي العطشى لقمةَ جوعٍ ؟ جُرعة آلِ ؟!
يا أسطورة
يا أغنيّة
ردّدها حرمانُ بلادي
أشبَعَها الشعراءُ تهاويلا وغراما

يا سحْرا يقتلُ أزهارَ سنيني

وأعُودُ كظلٍّ مسكينِ

وحْدي

أتلمّسُ دربا لـــ (المترو)

أحشرُ نفسي ما بينَ فئاتٍ بشريّة

وأعُودُ لفندقيَ الأدردْ

وحْدي

مثلَ الطيفِ المجهدْ ! [٦٣]

ويلحظ كيف اقترن الشعور بالغربة في النص السابق بالإحساس بالمهانة وضآلة الحجم والضياع في مدينة لايعرفه أحد فيها، وهـــذا يقربه من تجربة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي وطريقته المميزة في رصد أحاسيس القروي المغترب في المدينة. أما صورة بـــاريس المتوحشة الشهوانية المسعورة التي تنظر إلى ما في جيبه لا إلى ما في قلبه فهي تأخذه إلى الشعراء التموزيين وموقفهم مـــن المدينـــة، وعلى رأسهم بدر شاكر السياب الذي يكن القرشي له إعجابا خاصـــا وينجذب إلى عالمه في بعض قصائده مثل(من أطياف الغربة) وفيها تأثر واضح بقصائد السياب في ديوانه (شناشـــيل ابنـــة الجلبـــي)

وخصوصا قصيدته (يا غربة الروح) التـــي يقــول الســـياب فـــي مطلعها:

يا غربةَ الروح في دنيا من الحَجرِ
والثلجِ والقارِ والفولاذِ والضجرِ،
يا غربة الروح .. لا شمسٌ فائتلق
فيها ولا أفقُ
يطير فيه خيالي ساعةَ السحرِ .
نارٌ تضيء الخُواء البرد ، تحترقُ
فيها المسافات ، تُدنيني ، بلا سَفَرِ،
من نخل جيكورَ أجني دانيَ الثمر.
نار بلا سمر
إلا أحاديثَ من ماضيّ تندفقُ
كأنهن حفيفٌ منه أخيلةٌ
في السمع باقيةٌ تبكي بلا شجر.
يا غربةَ الروح في دنيا من الحجر !
مسدودةٌ كلُ أفاقي بأبنيةٍ
سودٍ ، وكانت سمائي يلهث البصرُ
في شطّها مثل طيرٍ هدّه السفرُ :
النهر والشفقُ
يميل فيه شراعٌ يرجف الألقُ
في خفقهِ ، وهو يحثو ، كلما ارتعشا،
دنيا فوانيسَ بعد أخرى تنشر الغبشا
فوق الجناحين...حتى يلهث النظرُ. [٦٤]

أما القرشي فهو يقول:

غريبٌ .. فوقَ أنهارِ المساءِ
سَرَى بغيرِ شراعْ
أسيرٌ غاصَ حتى القاعْ
تلوحُ الشمسُ فوق وشاحهِ
ترنُو.. وتنغمُر
يغيبُ سنا
يضيعُ وشاحْ
وفي أذنيْه ثرثرةُ الحَيارى
وفي ظلامِ اليمِّ
تستأني ، وتنحسرُ
ولا نأيٌ بكفيهِ
ولا عودٌ .. ولا وترُ
وفي منفاهُ همهمةُ الرياح
تهزُّها الأشباحْ ؟ [٦٥]

إنها غربة المسافر بعيدا عن وطنه وأحبابه بطعمها المر ووجهها الحزين الآسيان ، وما تبعثه في المرء من إحساس بالوحدة والوحشة والانقطاع .وكما لاذ السياب بجيكور وذكرى أمه والعراق، توجه القرشي بأشواقه وحنينه واستغاثته إلى موطنه و حبه الحجازي الذي لا يفتأ يلح على خاطره ناشدا لديه العزاء والسلوان لنفسه الظامئة للحب والنور والبعث من جديد:

وأنتِ ... وأنتِ....
يا همسَ القُرونِ
و دفقةَ الألحانْ
ذكرتُكِ واعتصرتُ صداكِ
فانفجرتْ بيَ الجدرانْ
ذكرتُكِ حالما بالموتِ ، بالمأساةِ
في بَوابةِ الأحزانْ
ذكرتُك ظامئا للفجرِ
للأمطارِ
للأصحابِ
مُرتميا على الشطآنْ
ذكرتكِ لمْ تزلْ ذكراكِ نهرا
يغمرُ الأعشابْ
وينقعُ غُلَّةَ الغدرانْ
ذكرتكِ أنتِ يا قدرَ الغريبِ
بساحةِ الحرمانْ
ويا خيطَ الضياءِ إليَّ
يعبرُ سُدْفةَ الآفاقِ مشتعلا
ويسحبُ حالكَ الأكفانْ ! [٦٦]

إن تجربته الاغترابية هذه المرة تقربه من السياب وعالمه في منطلقاتها ومفرداتها وصورها وتفاصيلها المائية: بحرا ونهرا وغديرا ومطرا وشراعا وزورقا وقاعا وشاطئا وموجا ويما. واحتشدت تلك الأوجه المائية في القصيدة تهزها رياح الغربة والذكرى ، و يعصر روحها حب عارم للحياة وهديرها الصاخب ممثلا في الماء: رمز الخصوبة والعنفوان. لكنها لا تنسى مغازلة الموت

بدافع الفضول والتحدي والاعتقاد الراسخ بتلازم الاثنين في تلك الثنائية والازدواجية التي كانت سبب عذاب شاعر العراق العظيم وخلوده في الوقت نفسه . إن ظمأ السياب إلى الحياة والرغبة المجنونة التي كانت تسكنه في اعتصار لذتها ومتعها لآخر قطرة لا يماثلها إلا تلك التي كانت للقرشي ، و يكمن الفارق بينهما في أن الأول غلبته الحسية تؤججها عواطفه القوية ، بينما استأثرت العاطفة وسموها بلب الثاني دون أن يتمكن من أن يصم أذنيه عن الحس وشراهته . يحدث هذا رغم الفارق الكبير بين غربة القرشي التي كانت في معظمها بدافع الوجاهة والثراء وتجدد المعرفة، وبين غربة السياب غربة الفقر والحاجة والمرض العضال والتشرد.و لا يمكن إرجاع هذا التشابه بين التجربتين إلى إعجاب القرشي بالسياب وحسب ، بل الأقرب أن يكون مرد ذلك إلى التوافق النفسي بين الشاعرين في إقبالهما على الحياة ولذتها ، وتعبيرهما عن ذلك في ضوء اختلاف انتماءاتهما الثقافية و العقدية والفكرية. وفي حين تجاهل القرشي الموت والفناء والسكون في شعره ما وسعه ذلك ، كان حضور جدلية الموت والحياة في شعر السياب من أهم مرتكزات عالمه الشعري المتميز.

بيد أن الغربة المكانية ليست هي هاجس القرشي الأقوى كما يظهر من شعره ، وربما لهذا لا يرصد شعره اغترابه المكاني إلا في قصائد محدودة مقارنة بتجاربه الاغترابية الأخرى ، هذا على الرغم من قضائه فترات طويلة من حياته بعيدا عن وطنه . وفي النهاية ليس المكان هو ما يستأثر باهتمام القرشي بل الإنسان ، وهذا ما يفسر شغفه برسم تلك اللوحات الرائعة لعدد من الشخصيات التاريخية والمعاصرة وحفرها ونقشها بأنامل خبير فنان يؤدي عمله بأكبر قدر من المتعة والمهارة . ويستحوذ هذا النوع من القصائد على مساحة جيدة من شعره تجلت قريحته فيها في أروع حالاتها في أداء كلاسيكي يقطر رقة ورشاقة في نغم بحتري أخاذ ورح صادقة الحب خالصة النية. ولا شك أن هذه المجموعة من أشعاره التي توجه بها إلى عدد من الشخصيات الأدبية وغيرها تحتاج إلى دراسة خاصة مستفيضة تكشف معالمها وأدواتها النفسية والفنية. لكن هذه القدرة والمهارة في قراءة النفس البشرية وفض مغاليقها لم تكن في صالح الشاعر دائما، بل أضافت سببا آخر إلى شقائه واغترابه. يقول في قصيدة له بعنوان (صحيفة الوجوه) :

إني سئمتُ من الأنامِ خداعا
ورجعتُ مكلومَ الحشا ملتاعا !

كم ذا أطالعُ في الوجوهِ صحيفةً
تجلو الخَنا وتجسّم الأوجاعا
كــلٌ يبادلك الــمودة كاذبا
فإذا اختبرتَ وجدته خدّاعا
بئستْ خلائق كالسّراب خوادع
تُخفي الأذى وتبدّل الأوضاعا [٦٧]

ويمضي الشاعر في تأمل أحوال هؤلاء المزيفين والخداعين بكــل ما جبلوا عليه من كذب ونفاق ، ويذهله كيف تقدموا الصــفوف دون سواهم واعتلوا أعلى المناصب والرتب ، ولا يجد مفــرا أمــام هــذا الزيف والنفاق والأوضاع المقلوبة إلا أن ينأى بنفسه عن هذا العبث ويفر إلى العزلة والتفرد :

لا تسألوا لمَ عدتُ فردا في الورى
إنيّ سئمت من الأنام خداعا! [٦٨]

كذلك شكا الشاعر من جحود ونكران الأبعدين والأقــربين كمــا فــي قصيدته (هتفة مجروح) التي لاذ فيها بأعتاب الكريم يشكوه غربته وكربته :

فاقبلْ شَكاتي إنني مثقلُ
إني غريبٌ عِشتُ بينَ البشرْ
مستغفرا جئتكَ لا أحملُ
إلا إلى ذاتِكِ روحي الأشِر [٦٩]

كما أرجع قدرا من عذابه واغترابه إلى علاقته بالشعر و الكلمة وما تفرضه هذه العلاقة على بعض الشعراء من إحساس بالمسؤولية تجاه البشر فهم شمعة تحترق ونبض يشتعل من أجل الآخرين. هذه المكانة الرفيعة التي تمنح الشاعر هالة تكاد تكون أسطورية لها جذورها في الشعر العربي القديم كما عبر شعراء العربية عنها من أمثال: طرفة والمتنبي وأبي العلاء وابن الرومي وغيرهم . فلا أحد يقدر مواهبهم العظيمة وتضحياتهم الجمة ولا يكافئهم زمنهم إلا بالإهمال والجحود والنكران. وقد تميز شعراء أبوللو عموما بها المنحى الأسطوري في إعلاء قدر الشاعر وتعظيم مكانته، ولهم في ذلك قصائد مشهورة كتلك التي كانت لعلي محمود طه والشرنوبي. يقول القرشي في قصيدة بعنوان (الشاعر):

هدأ الكونُ وأشجاه الظلامُ
ملكٌ يسهر والناس نيامُ

غارقٌ في لججِ الفكر شجٍ
زارعٌ ، والزرع يجنيه الطغام

ضاحكٌ باكٍ معا ، كم يغتلي
بمآسيه فيعييهِ الكلام

راعشُ القلب،وفي القلب جوًى
حائر، من صولة الغدرِ مُضام

خافض الرأس ، وكم يثقـلُـه
أن يرى الأحلامَ يعلوها قتام

صحب الناس على شِرَّتهـم
وتناءى حين أعـياه السقام

يحمل الوردَ إلى داراتهـم
فـيـبـاديه عـقـوق واتـّهـام

ويريق الشهدَ في أكوابهـم
وحصادُ الشهـدَ ذلٌ وملام

أوسعُـوه ألـما وهـو الـذي
عاش يأسو الجرحَ والداء عقام

يا له مـن عـاشـقٍ ، مـغـتربٍ
في ربُىً ملء حواشيها الضِّرام ! [٧٠]

وقد مال أسلوب الشاعر في هذا النـوع مـن الاغتـراب إلـى التقريرية والمباشرة ومن قصائده في هذا الصدد (ذكرى غاربـة) و(ذكراك) و (ذكرى) و (موكب الذكريات) و (الحـب والـذكرى) و(شهقة ذكرى). بينما لجأ في قصائد أخـرى إلـى طـرق غيـر مباشرة لنقل إحساسه بالغربة، وامتلأ رغبة في الفرار إلى الماضـي والاحتماء بعالم الذكريات من الحاضر وقسوته فـي محاولـة منـه لاستعادة توازنه. و يعبر الهروب إلى الماضي في أحد أشـكاله عـن

غربة زمانية ومحاولة من العقل الباطن لإيجاد رابط حتى ولـــو كـــان وهميا مع الحياة والأحياء. ورغم اهتمام القرشـــي بالماضـــي بحكـــم دراسته وتركيبته الرومانسية ، فإنه لا شك شاعر الحاضر واللحظـــة الآنية. فالحاضر هو البعد الزماني الذي أطال الشاعر الوقوف عنده وكان مسكونا بهاجس الإمساك به وتأمله وتسجيل وقائعه حتـــى لـــو بدت لغيره تافهة وسطحية . و يعكس هذا الأمر إلـــى أي حـــد كـــان القرشي مقبلا على الحياة طامعا فيها لإرواء نفسه الظامئة إلى الفـــن والجمال والحب. وكما مثل هروبه إلى الماضـــي ملمحـــا لاغترابـــه الزماني كذلك جاء هروبه إلى المستقبل مدفوعا برغبته في الانعتـــاق من دنيا البشر وغربته بين أنحائها ، خصوصا حين تبدو الحياة التي أحبها في صورة غير التي يريد . ومن هذا القبيل قصيدته (صديقنا القمر):

لوْ كنتُ رائدَ القمر
لو انطلقتُ في " أبُولـــوُ "
مُصْعدا سعيدْ
إلى حدائق الفضاءِ
للجزيرةِ البيضاءْ
إلى انعتاقِ الغدِ
من حَظائر القطيعْ
ولو وطئتُ ذلك الثرى العتيد
مُسْتَشرفا إلى المدى البعيدْ

مخلــّفا في الأرضِ
شوكَ اليأسِ والقيودْ
في حقلنا المزروعِ بالآلامِ
بالحروب ، والصديدْ
لما َقفلتُ عائدا إلى البشرْ
لما رجعتُ للشقاءِ
للعناءِ ، والكدرْ
لمسْرح الحواةِ للسِّرك لملعب الأكرْ
للناعقين بالسلامِ ، والسلامُ ينتحرْ
ولو بقيتُ بركانا هناكَ
يلفظُ الجحيمَ ..... أو حجرْ ! [٧١]

إن فرار الشاعر من كوكبه إلى كوكب آخر يعبر عما بات يستشعره من ضيق وحصار، وهو يعلم أنه إنما يفر إلى حلم أو وهم بعد اكتشاف حقيقة القمر، لكنه مع ذلك يتمسك بهذا الحلم؛ لأنه لا يفر من المكان، بل من ساكنيه وما باتوا عليه من ظلم ووحشية. ورغم كراهية القرشي الصامتة لمظاهر العدم والسكون والفناء والموت وميله إلى تجاهلها في شعره ما أمكنه ذلك، فإنه يتمنى هنا أن يتحول إلى قطعة حجر أصم وهي أمنية قاسية بالنسبة لمن كان مثله. وقد أبدى الشاعر صدمته في عدد من قصائده من الصورة التي نقلها العلماء عن القمر ــ و للقمر منزلة خاصة عند الأبوللين ــ فنفسه لا تؤمن إلا بالجمال ولا تريد أن ترى سواه، فهو حق وما عداه باطل سيسقط وضلال سيندحر. ويفر الشاعر مجددا إلى القمر

وهذه المرة في صحبة المرأة في قصيدة بعنوان (مهاجران إلى القمر) . و يتجه الشاعر فيها إلى بناء مدينته الحلم، مثل غيره من الشعراء، ويرسم صورة غريبة لها في حلم أقــرب إلـــى الكــوابيس والمنـــام المزعج:

وحينَ أقلعَ النهارْ
وعُدتِ يا صديقتي كدرَّةِ المحارْ
وحين أوْرقَ السهرْ
ورنَّحتْ أقدامَنا نَداوةُ المطرْ
حَسِبتُ أنَّا طائرانِ هاربانِ من قسَاوة البشرْ
مهاجران للقمر.. [٧٢]

حبيبتي.....
رأيتُ في الحلم الغريبِ أنَّا ضائِعانْ
طفلانِ ضَائعانِ متعبانْ
عاشا معا مشرَّدينِ في القفار
وقبل مولدِ النهارْ
رأيتُ أنَّا قد كبرنا قد تَزوجنا وأنجبنا صِغار
وعيْشُنا قد كان في مدينةٍ بلا بشر
كان هناك الصخرُ قد كان الدخان
يغلـــِّف الآفاقَ .....قد كان المطر
يلقـــِّحُ الأشجارَ لكنْ لا ثمرْ
أضرَبتِ الأشجارُ ، عرْبدَ الزهر
فرحت إذ رأيتُ طفلنَا الكبيرَ يعشقُ الخطر
قد كانَ يجري كالرجالِ لا يُبالي المنحدر..... [٧٣]

ويسقط ذلك الطفل الجميل ويلقى مصرعه ليستفيق الشاعر من حلمه آسفا حزينا لهذه النهاية. وتفوح في هذا الجزء من النص رائحة أجنبية تعود بالتحديد إلى عالم الأساطير اليونانية والتصورات الإغريقية وخيالها المجنح وغرامها بصورة الإنسان الإله والأبطال الخارقين كبارا وصغارا رجالاو نساء. وقد استثمر هذه الأجواء كاتب الألمانية الكبير جوته في مسرحيته الخالدة (فاوست) وفيها يتزوج فاوست من هيلانة رمز الكمال البشري ويرزقان بطفل خارق يتضوع حيوية وبطولة، لكنه سرعان ما يقضي أثناء أداء إحدى حركاته الخارقة وسط حسرة والديه وحزنهما. وهو أمر يشبه ما يذكره القرشي في قصيدته ، وقد كان ــ رحمه الله ــ واسع الثقافة مهتما بالإطلاع على التراث الأجنبي والثقافات المختلفة. وهكذا يجمع الشاعر في هذه القصيدة بين منحيين كلاهما يعبر عن غربة قاسية ويكشف عن رغبة عارمة تستولي عليه في الفرار من زمنه وحاضره؛ فرجوعه إلى الطفولة وارتداده الزمني إلى عهد النقاء والصفاء، وهو منزع رومانسي، يقترن بانطلاقه إلى المجهول والمستقبل، و يجمع الشاعر بهذا بين لحظتين مستحيلتين ناشدا الحرية والانعتاق. يقول الدكتور يسري العزب : " ولقد حدا هذا

بالرومانسيين إلى استحداث ظاهرة (التسامي) في شعرهم ، حيث يصبح الشاعر في القصيدة طيفا أثيريا أو روحا مجنحة يخترق الحواجز الواقع إلى واقع مثالي أكثر رحابة وقدرة على استيعاب طاقته الروحية والخيالية التي بلا حدود ." [٧٤] هذا وتتنفس القصيدة السابقة أجواء عالم صلاح عبدالصبور ــ فارس مصر الحزين ــ ورؤيته الشعرية المميزة بطابعها السردي، وطلعتها الحزينة، وكلماتها الممزوجة بتفاصيل الحياة اليومية المغموسة في ألم الشعور بالوحدة والوحشة. فهي تستوحي أصداء قصائده خصوصا ديوانه (أحلام الفارس القديم) بروحها التي تتفتح جراحها في المساء كما تتفتح الورود النضرة لتبعث أنغامها الشجية في ألم ممض يتغلغل في جسد القصيدة على نحو خفي مبهم في حس إنساني مهيمن لا يفرط في علاقته الحميمة بالحياة والأحياء رغم حزنه وألمه. يقول القرشي :

وحينَ أقلعَ النهارْ
نسيتُ يا صديقتي ...أنّي نسيتُ الانتظار
وعادَ جرحي في انهمار
يسألُ عنكِ .. نجمة مهزومة الضياء
أضلـّها الفضاءْ
كما أضلَّ رُوحي في المساءِ الانتظار [٧٥]

ويحتفظ الشاعر بأسبابه للهروب من وجه البشر و عالمهم القاسي الموحش ، ويضع ثقته الكاملة في العاطفة وقوتها السحرية وخيالها الحر الطليق لإنقاذ صديقه القمر :

حبيبتي لا تحزني فلن يضيعَ بدْرَنا جيشُ التترْ
ففي خيالنا البُدورُ تنتظر
سنرجعُ البدرَ إذا البدرُ انتحرْ.. [٧٦]

وتبدو خاتمة القصيدة مفتعلة وساذجة، وكان يمكن استثمار موت ذلك الطفل الجريء المغوار رمز الحب في قوته وطهره وعدم مبالاته بالأخطار بطريقة تتناسب مع طابعها العميق الهادئ وخفوت نبرتها الحزينة. لكن هذه النهاية تتوافق على سذاجتها مع إيمان الشاعر وتفاؤله وعفويته وتلقائيته. والواقع أن صوت الشاعر في قصائده التي عبرت عن غربته المكانية والزمانية كان ظاهرا أكثر من المطلوب على نحو أفسد بعض تلك النصوص ووسمها بالسطحية والضعف. ويبدو أن الشاعر يفهم هذا النوع من الغربة ويستوعب أبعاده وأسبابه، ولهذا كان يتأملها بوعي حاضر متيقظ دون أن تصيبه في مقتل وتفقده توازنه مثل غربته العاطفية أو قلقه الوجودي.

خاتمه

ولاشك أن دراسة موضوع الاغتراب في شعر القرشي تعني الكشف عن جوهر تجربته الشعرية وأهم مرتكزاتها الأساسية، وهو أمر متوقع بحكم انتمائه إلى العالم الرومانسي برؤاه الحزينة الغائمة وانتسابه إلى أبوللو بتطرفها العاطفي ورقتها المتناهية. و إذا كانت هناك خصوصية تميز القرشي في هذا المجال فإنها تكمن في ارتباط ظاهرة الاغتراب في شعره بموضوع المرأة التي تسجل ــ هي أوأحد رموزها ــ حضورا مميزا في مشهده الاغترابي. وتتعلق أنظار الشاعر بها أملا يبدد الغربة وأشباحها التي تحوم في المكان، ويصل إيمان الشاعر بقدرتها السحرية على بعث الحياة والربيع و نشر الضياء إلى درجة اليقين. وربما ليس من المستغرب أن يكون هذا اليقين من أهم أسباب تفاؤله الذي يميز رومانسيته الحزينة ويمنحها ألقها ولونها البهيج مقارنة مع سوداوية بعض الرومانسيين وأشعارهم الكئيبة البائسة.

فهرس الحواشي

١ــ انظر: ريتشارد شاخت، الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص: ٦٣ــ٢٩٤
٢ــابن منظور، لسان العرب، ج١، ص:٦٣٧ــ٦٤٨.
٣ــ محمود رجب، الاغتراب سيرة مصطلح، القاهرة: دار المعارف١٩٨٦، ص:١٧٨ــ١٨١
٤ــ البقرة آية ٣٧
٥ــ الشيخ محمد متولي الشعراوي "عداوة الشيطان للإنسان" http://www.islamiyyat.com/books.htm
٦ــ البقرة آية ٣٨
٧ــ طه آية ١٢٣
٨ــ الأنعام آية ١٢٢
٩ــ صحيح مسلم، بشرح الإمام محي الدين،جدة:كنوز المعرفة ج٢،ص ١٧٦
١٠ــ أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية،تحقيق: وداد القاضي، بيروت:دار الثقافة،١٩٧٣،ص٨٤
١١ــ ابن باجة الأندلسي ، تدبير المتوحد،تحقيق وتقديم: معن زيادة، بيروت دار الفكر، ١٩٧٨م،ص:٤٥ــ٤٦
١٢ــ المرجع السابق، ص:٤٦
١٣ــ انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب، دار عمار ، ص:٢٠ــ٥١
١٤ــ أبو العلاء المعري،ديوان لزوم ما لا يلزم، تحقيق وشرح وحيد كبة وحسن حمد، بيروت : دار الكتاب العربي١٩٩٨م،المجلد الأول ،ص٤٣.
١٥ــ طرفة ابن العبد، شرح الأعلم الشتنمري، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ١٩٧٥م،ص٣١
١٦ــ محمود عبدالله الجادر"طرفة ابن العبد، بين الانتماء والاغتراب في نصه الشعري" مجلة التراث الادبي٨٥، ٢٠٠٢م ، http://www.awu-dam.org/index.html
١٧ــ أبو الطيب المتنبي، تحقيق الشيخ ناصيف اليازجي، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر،المجلد الأول، ١٩٨٤م، ص١٤٥

١٨ــ محمود قاسم ،" ظاهرة الغربة :الإنسان كائن وحيد في الأدب الحديث" المنهل ،مج٥٦رجب شعبان ١٤١٩،ص١١١
١٩ــ المرجع السابق،١١١
٢٠ــ يقصد شعر التفعيلة.
٢١ــ حسن عبدالله القرشي، الأعمال الكاملة ، المجلد الأول ، بيروت: دار العودة١٩٨٣،ص٢٤ــ٢٧
٢٢ــ المجلد الأول،٢٧٨
٢٣ــ عبدالكريم راضي جعفر، رماد الشعر، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة١٩٩٨م،ص٢٤
٢٤ــ المجلد الثاني،٣١٣
٢٥ــالمجلد الاول٢٨١
٢٦ــ المجلد الثالث، ٤١٩
٢٧ــ المجلد الأول، ٣٤٦
٢٨ــ السابق، ١٨٧
٢٩ــ عبدالقادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر،بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر١٩٨١م، ص:٢٨٩
٣٠ــ المجلد الثاني ، ١٠٥ــ١٠٦
٣١ــ يسري العزب،القصيدة الرومانسية في مصر١٩٣٢ــ١٩٥٢،القاهرة:الهيئة المصرية العامة١٩٨٦،ص٤١
٣٢ــ المجلد الأول،٦٤
٣٣ــ السابق،٣١٦
٣٤ــ المجلد الثاني١٠٧ــ١٠٨
٣٥ــ السابق ،١٥٠ــ١٥١
٣٦ــ السابق،١٥٤
٣٧ــ ريتشارد شاخت، ص:٣٠٠ــ٣٠١
٣٨ــ المجلد الثاني، ٣٩٦ــ ٣٩٧
٣٩ــ السابق، ٤٠٣ــ ٤٠٤
٤٠ــ المجلد الأول، ٣٤٧ــ ٣٤٨
٤١ــ السابق،٤٨٧ــ٤٩٠
٤٢ــ السابق، ٤٩٠
٤٣ــ السابق،٦٣٢

٤٤ــ السابق،٦٣٣ــ٦٣٤
٤٥ــ ماهر حسن فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي، الكويت: دار الفكر، ص: ١٢٧
٤٦ــ المجلد الأول ،٦٣٤
٤٧ــ السعيد الورقي ، لغة الشعر العربي الحديث، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٢م، ص: ٢٨٣.
٤٨ــ المجلد الثاني،٤٥٢ــ ٤٥٤
٤٩ــ عزالدين إسماعيل ،الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ص:٣٥٦
٥٠ــ سلمى الخضراء الجيوسي ،الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠٠١،ص:٧٠٨
٥١ــ السابق، ص:٧١٤ــ ٧١٥
٥٢ــ عبد العزيز شرف، الرؤيا الإبداعية في شعر حسن عبدالله القرشي، القاهرة: دار المعارف١٩٩٢م،ص:٢٧
٥٣ــ المجلد الثالث، ١٦٧ــ١٦٩
٥٤ــ السابق، ٣٢٥ــ٣٢٦
٥٥ــ صلاح عدس، الحركة الشعرية في السعودية :حسن عبدالله القرشي حياته وأدبه،القاهرة: مكتبة مدبولي ١٩٩١م،ص:٥٢
٥٦ــ المجلد الثالث،٣٢٦
٥٧ــ السابق، ١٩٥ــ ١٩٦
٥٨ــ السابق،٣٣١ــ٣٣٣
٥٩ــ السابق،٣٠١ــ٣٠٢
٦٠ــ السابق،٣٠٥ــ٣٠٦
٦١ــ المجلد الثاني،٦٨٣ــ٦٨٥
٦٢ــ السابق،٦٨٥ــ٦٨٦
٦٣ــ السابق،٦٨٧ــ٦٨٨
٦٤ــ بدر شاكر السياب، المجموعة الكاملة، المجلد الأول،بيروت: دار العودة ١٩٨٦م،ص:٦٦٠ــ ٦٦١
٦٥ــ المجلد الثالث، ٢٣٢ــ٢٣٣
٦٦ــ السابق، ٢٣٤ــ٢٣٦
٦٧ــ المجلد الأول،٥١٥

٦٨ــ السابق،٥١٧
٦٩ــ المجلد الثاني،٢٤٢
٧٠ــ المجلد الثالث، ٢٧٥ــ٢٧٧
٧١ــ المجلد الثاني ، ٦٧٥ــ ٦٧٦
٧٢ــ السابق، ٦٨٩
٧٣ــ السابق، ٦٩٠ــ٦٩١
٧٤ــ يسري العزب، القصيدة الرومانسية في مصر ١٩٣٢ــ١٩٥٢،ص٦١
٧٥ــ المجلد الثاني ،٦٩٠
٧٦ــ السابق،٦٩٣